منتقى التفاسير

تفسير سورة

الفاتحة

جمع واعداد
محمد مريس الحجاجي

منتقى التفاسير
[تفسير سورة {الفاتحة }]
مكية في قول الجمهور وعدد آياتها (سبع آيات).
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخلاف في نزولها

أخرج وكيع والفريابي في تفسيريهما وأبو عبيد في فضائل القرآن وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر في تفسيره وأبو بكر بن الأنباري في كتاب المصاحف وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية من طرق عن مجاهد قال : نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة

وأخرج وكيع في تفسيره عن مجاهد قال : نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة .

وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال : نزلت فاتحة الكتاب بمكة .

قال ابن عطية :" قال ابن عباس وموسى بن جعفر عن أبيه وعلي بن الحسين وقتادة وأبو العالية ومحمد بن يحيى بن حبان إنها مكية ويؤيد هذا أن في سورة الحجر " ولقد آتيناك سبعا من المثاني " والحجر مكية بإجماع

وفي حديث أبي بن كعب أنها السبع المثاني والسبع الطول نزلت بعد الحجر بمدد ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة وما حفظ أنها كانت قط في الإسلام صلاة بغير الحمد لله رب العالمين

وروي عن عطاء بن يسار وسوادة بن زياد والزهري محمد بن مسلم وعبد الله بن عبيد بن عمير أن سورة الحمد مدنية ".

وقال ابن تيمية :" وكذلك قول من قال : الفاتحة لم تنزل إلا بالمدينة غلط بلا ريب . ولو لم تكن معنا أدلة صحيحة تدلنا على ذلك لكان من قال : إنها مكية معه زيادة علم . ".

وقال ابن كثير :" وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَقِيلَ مَدَنِيَّةٌ، قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالزُّهْرِيُّ. وَيُقَالُ: نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِمَكَّةَ، وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الْحِجْر: 87] ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ".

وقال الطاهر بن عاشور :" وَهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقِ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ كَثِيرٌ إِنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ نَزَلَ قَبْلَهَا: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ [العلق: 1] وَسُورَةُ الْمُدَّثِّرِ ثُمَّ الْفَاتِحَةُ، وَقِيلَ نَزَلَ قَبْلَهَا أَيْضًا: ن وَالْقَلَمِ [الْقَلَم: 1] وَسُورَةُ الْمُزَّمِّلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً أَيْ غَيْرَ مُنَجَّمَةٍ، بِخِلَافِ سُورَةِ الْقَلَمِ، وَقَدْ حَقَّقَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهَا نَزَلَتْ عِنْدَ فَرْضِ الصَّلَاةِ فَقَرَأَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ فَرْضِهَا".

قال ابن عطية :" الإجماع أنها سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست آيات وهذا شاذ لا يعول عليه وكذلك روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل " إياك نعبد " فهي على عده ثماني آيات وهذا أيضا شاذ وقول الله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ﴾]الحجر:٨٧] هو الفَصْلُ في ذلك ".

قال ابن كثير :" وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ: ثَمَانٌ، وَقَالَ حُسَيْنٌ الْجُعْفِيُّ: سِتَّةٌ وَهَذَانِ شَاذَّانِ ".

فالسورة مَكِّيَّةَ وذلك:

1- أنه وردت تسمية الفاتحة بالسبع المثاني في السنة، وذلك قوله ﷺ» :الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ المَثانِي .«وقد جاءت هذه التسمية في سورة مكية، وهي سورة الحجر، في قوله تعالى :﴿ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾.

٢ -أنّ فَرْضَ الصلاة كان بمكة، ولم يُحفظ أنه كانت هناك صلاة بغير الفاتحة.

٣ -أن القائلين بمكيتها معهم زيادة علم.
قال ابن تيمية :" وَالْفَاتِحَةُ سَبْعُ آيَاتٍ بِالِاتِّفَاقِ . وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : [فَاتِحَةُ الْكِتَابِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي .] ".

مقدمة

أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : كان عبدالله لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف وقال : لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء .
وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن الانباري في المصاحف عن محمد بن سيرين وابن الأنباري في المصاحف أن أبي كعب كان يكتب فاتحة الكتاب والمعوذتين واللهم إياك نعبد واللهم إياك نستعين ولم يكتب ابن مسعود شيئا منهن .
وكتب عثمان بن عفان فاتحة الكتاب والمعوذتين .
وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن إبراهيم قال : سألت الأسود عن فاتحة الكتاب أمن القرآن هي ؟ قال : نعم .
قال ابن حزم في المحلى : كل ما روي عن ابن مسعود أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع لا يصح، وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، وفيها أم القرآن والمعوذتان .انتهى.
وقد جنح ابن حجر في الفتح والزرقاني في مناهل العرفان لثبوت ذلك عن ابن مسعود وقال إنه يحتمل التأويل بأنه قال ذلك قبل ثبوت قرآنيتهما عنده، فلما ثبت ذلك عنده وافق جمهور الصحب فيهما وكان يقرئ بهما.
قال الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن :يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد تم التواتر وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن. قال بعضهم: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما. وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر والواجب عليه التثبت في هذا الأمر .اهـ.
قال الزرقاني :ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهي صحيحة ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر. إذا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود جمعا بين الروايتين .اهـ

أسماء السورة

تعدَّدتْ أسماء الفاتحة، وقد أَوصَلَها بعضُهم إلى نحو من عشرين اسمًا كما في الاتقان ، وقد علل السيوطي هذه الكثرة في الأسماء بأنها تدل على شرف المسمى .
ومن هذه الاسماء:-
الاول :- فاتحة الكتاب لحديث عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ]. متفق عليه. ويقال لها الفاتحة لانها فاتحة الكتاب خطا وبها تفتح القراءة في الصلوات.

الثاني :- السَّبع المثاني والقرآن العظيم: لقوله تعالى في سورة الحجر: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر: 87].
وكما روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ :كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ { اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }([1]) ثُمَّ قَالَ لِي :[لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ].
وهذا صريح في أن الفاتحة أعظم سورة في القرآن واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض ، كما هو المحكي عن كثير من العلماء منهم : إسحاق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربي .
وروي الإمام أحمد والترمذي بإسناد حسن صحيح عن أبي هريرة ، نحوه ، غير أن القصة مع أبيّ بن كعب ، وفي آخره :
[والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني]

---

[1] - ففيه دليل على إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم ولو في الصلاة يعني صلاة النافلة ، وهذا مستثنى بنص الآية. وكذلك إذا كان في صلاة النفل ودعاه والداه أو أحدهما وكان يعلم أنهما لا يغضبان ولا يتأثران بذلك فيكمل صلاته، وأما إذا كان يعلم أنهما يتأثران فيجيبهما ويقطع الصلاة؛ لأنها صلاة نفل وإجابة الوالدين واجبة، وأما الفريضة فلا.
ومعروف قصة جريج كما في البخاري ومسلم وهذا لفظه: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ قَالَ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ فَقَالَ أَيْنَ الصَّبِيُّ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلَانٌ الرَّاعِي قَالَ فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ فَفَعَلُوا وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ..الحديث]
فالمقصود أن الله استجاب دعوة أمه، فنظر إلى وجه المومسة المرأة البغي هذه، وهذا يدل على أن حق الوالد عظيم وأنه لا ينبغي أن يفرط فيه.
وإجابة الرسول عليه الصلاة والسلام أولى من إجابة الوالد؛ لأن الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال:24].
كما يفيد الحديث ان الآية قد ترد لمعنى وتحتمل معنىً آخر غير المعنى المتبادر فتحل على هذه المعاني جميعا ان لم يوجد معارض .فالاية في الاستجابة بالايمان وهنا اراد المناداة ولا تعارض بينها ومثله ما رواه البخاري ومسلم عن عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ :إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ أَلَا تُصَلُّونَ فَقَالَ عَلِيٌّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ :{ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا }
قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ يُقَالُ مَا أَتَاكَ لَيْلًا فَهُوَ طَارِقٌ".مع ان الآية في جدل كافرٍ بالبعث.

وسميت بالمثاني لانها تثنى في الصلاة أي تكرر.
الثالث :- أم القرآن كما روى مسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْتَرِئْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ].
ولمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا أُمَّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِداج -ثَلَاثًا-غَيْرُ تَمَامٍ ".
الرابع: - أم الكتاب: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم» [رواه ابو داود وصححه الالباني].
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كلُّ صلاة لا يُقرَأُ فيها بأمِّ الكتاب، فهي خِداجٌ» [رواه ابن ماجة وصححه الالباني].اي منقوصة.
وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة اللديغ أن الرجل رقَاهُ بأمِّ الكتاب.
قال البخاري: "سميت أم الكتاب؛ لأنه يُبتدَأُ بكتابتها في المصاحف(وذلك بناء على ان ترتيب المصحف توقيفي)، ويُبدَأُ بقراءتها في الصلاة". وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته.
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: "وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ جَامِعِ أَمْرٍ أَوْ مُقَدَّمٍ لِأَمْرٍ -إِذَا كَانَتْ لَهُ تَوَابِعُ تَتْبَعُهُ هُوَ لَهَا إِمَامٌ جَامِعٌ – أُمًّا".(والكلام في سبب التسمية اجتهادي ولعل اقربها ما ذكره ابن جرير).
وقد أخرج ابن الضُّرَيْسِ في "فضائل القرآن" عن محمد بن سيرين أنه كان يَكرَهُ أن يقول: أم الكتاب؛ يقول: قال الله تعالى: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39]، ولكن يقول: "فاتحة الكتاب"، ورُوي نحوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه[35].
ورُوِيَ عن الحسن قال: "أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: 7]".
وإنما كرهه هؤلاء؛ لأن الله سمَّى اللوحَ المحفوظ أمَّ الكتاب، في قوله: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39]، وفي قوله: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: 4].
كما سمَّى الآياتِ المحكمات المشتملة على الحلال والحرام وغيره "أمَّ الكتاب" في قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: 7].
وهذه العلة لا تكفي حجة؛ إذ لا يلزم من تسمية الفاتحة "أمَّ الكتاب" ألا يُسمَّى غيرُها بذلك.
قال القرطبي :" بعدما ذكر ما رُوِيَ عن أنس والحسن وابن سيرين من كراهتهم تسميتها أمَّ الكتاب، وما رُوِيَ عن أنس وابن سيرين - أيضًا - من كراهيتهما تسميتَها أمَّ القرآن، قال: "والأحاديث الثابتة ترُدُّ هذين القولين."
الرابع :-وكذلك تسمى الشافية وتسمى الرقية لحديث ابي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا، فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَّب، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رجل ما كنا نَأبِنُه برقية(أي ما كنا نعرفه برقية)([2])، فرقاه، فبرأ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً، أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ، أَوْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " وَمَا كَانَ يُدْرِيه أَنَّهَا رُقْيَةٌ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ "([3]).والاقرب ان هذا الاسم من اوصاف سورة البقرة وليس من اسمائها.

---

[2] -وهذا يدلك ان الرقية يقوم بها كل احد .
[3] - قال النووي رحمه الله : "هَذَا تَصْرِيح بِجَوَازِ أَخْذ الْأُجْرَة عَلَى الرُّقْيَة بِالْفَاتِحَةِ وَالذِّكْر , وَأَنَّهَا حَلَال لَا كَرَاهَة فِيهَا". انتهى من " شرح صحيح مسلم " للنووي (188/14).

وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ مُسْلِمٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ هُوَ الَّذِي رَقَى ذَلِكَ السَّلِيمَ، يَعْنِي: اللَّدِيغَ يُسَمُّونَهُ بِذَلِكَ تَفَاؤُلًا.

وهناك اسماء اخرى كالكافية والوافية والحمد لله رب العالمين.

وقالوا ايضا ان من اسمائها الصلاة لحديث مسلم عن ابي هريرة قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ(4)، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الْفَاتِحَةِ: 2] ، قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قال: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الْفَاتِحَةِ: 3] ، قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الْفَاتِحَةِ: 4] ، قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي "

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لَا بَأْسَ بِجَوَازِ أَخْذِ الْأُجْرَةِ عَلَى الرُّقْيَةِ ، وَنَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ" .انتهى من "الفتاوى الكبرى" (5 / 408).

وقال الرحيباني في " مطالب أولي النهى " (3 / 639): "وَلَا يَحْرُمُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى رُقْيَةٍ , نَصَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله تعالى , وَاخْتَارَ جَوَازَهُ ، وَقَالَ : لَا بَأْسَ بِهِ ، لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ " انتهى.

وجاء في " الموسوعة الفقهية " (23 / 98): "ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى جَوَازِ الْجُعْلِ عَلَى الرَّقْيِ " انتهى.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: "لا حرج في أخذ الأجرة على رقية المريض " انتهى من " مجموع فتاوى ابن باز " (19 / 339).

-وللمسترقي أن يشترط الشفاء لاستحقاق الراقي الأجرة ، ويكون هذا من باب الجَعالة ، وهي نوع من الأجرة ، غير أنها تختلف عنها في بعض الأحكام ؛ لأن الجعالة تجوز على عمل مجهول.

قال ابن قدامة رحمه الله: "قَالَ ابْنُ أَبِي مُوسَى : لَا بَأْسَ بِمُشَارَطَةِ الطَّبِيبِ عَلَى الْبُرْءِ ; لِأَنَّ أَبَا سَعِيدٍ حِينَ رَقَى الرَّجُلَ , شَارَطَهُ عَلَى الْبُرْءِ ، وَالصَّحِيحُ إنْ شَاءَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يَجُوزُ , لَكِنْ يَكُونُ جَعَالَةً لَا إجَارَةً , فَإِنَّ الْإِجَارَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مُدَّةٍ , أَوْ عَمَلٍ مَعْلُومٍ , فَأَمَّا الْجَعَالَةُ , فَتَجُوزُ عَلَى عَمَلٍ مَجْهُولٍ , كَرَدِّ اللُّقَطَةِ وَالْآبِقِ , وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فِي الرُّقْيَةِ إنَّمَا كَانَ جَعَالَةً , فَيَجُوزُ هَاهُنَا مِثْلُهُ. " انتهى من " المغني " (314/5).

وفي " حاشية الصاوي" على "بلغة السالك لاقرب المسالك للدرير " (98/9): "لَوْ شَارَطَهُ طَبِيبٌ عَلَى الْبُرْءِ فَلاَ يَسْتَحِقُّ الْأَجْرَ إلاَّ بِحُصُولِهِ " انتهى.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "إذَا جَعَلَ لِلطَّبِيبِ جُعْلًا عَلَى شِفَاءِ الْمَرِيضِ جَازَ كَمَا أَخَذَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ جُعِلَ لَهُمْ قَطِيعٌ عَلَى شِفَاءِ سَيِّدِ الْحَيِّ ، فَرَقَاهُ بَعْضُهُمْ حَتَّى بَرِئَ فَأَخَذُوا الْقَطِيعَ ؛ فَإِنَّ الْجُعْلَ كَانَ عَلَى الشِّفَاءِ لَا عَلَى الْقِرَاءَةِ " انتهى من "مجموع الفتاوى" (20 / 507).

وقال الشيخ ابن جبرين رحمه الله: "لا مانع من أخذ الأجرة على الرقية الشرعية بشرط البراءة من المرض وزوال أثره" .

وبهذا يتبين أنه لا حرج في أخذ الأجرة على الرقية ، ولذلك صورتان:

الأولى : أن تكون أجرة ، وهنا يستحق الراقي الأجرة سواء حصل الشفاء أم لم يحصل ، وله أن يأخذها قبل العمل أو بعده ، حسب ما يتفقان عليه.

الثانية : أن تكون جعالة ، فلا يستحقها حتى يحصل الشفاء.

وعلى الراقي أن يرقي بالرقية الشرعية من الكتاب والسنة ، دون الرقية البدعية أو الشركية ، وأن يخلص فيها النية.

وينبغي أن يُعلم أن الطبيب أو الراقي لا يشفي أحدا ، إنما يشفي الله تعالى ، كما جاء في حديث الغلام والساحر ، لما قال جليس الملك للغلام المؤمن – وقد أتى له بهدايا كثيرة - : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال له الغلام : [إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله تعالى ، فإن أنت آمنت بالله ، دعوت الله فشفاك] رواه مسلم (3005).

وقد روى البخاري (5675) ، ومسلم (2191) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ : [أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا] وفي لفظ : [لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فيه إِشَارَة إِلَى أَنَّ كُلّ مَا يَقَع مِنْ الدَّوَاء وَالتَّدَاوِي إِنْ لَمْ يُصَادِف تَقْدِير اللَّه تَعَالَى وَإِلَّا فَلَا يُنْجِع" انتهى من " فتح الباري " (207/10).

[4] - معنى كونها نصفين أن نصفها الأول ثناء، ونصفها الأخير دعاء وسؤال، فنصفها الأول لله ونصفها الثاني للعبد.

-وَقَالَ مَرَّةً: " فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي -فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَةِ: 5] ، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الْفَاتِحَةِ: 6، 7] ، قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ".وفي رواية النَّسَائِيُّ: " فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ".

والمراد بالصلاة يعني الفاتحة لانها شرط في صحتها .

قال ابن كثير :" ثُمَّ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَدْ أَطْلَقَ فِيهِ لَفْظَ الصَّلَاةِ، وَالْمُرَادُ الْقِرَاءَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا} [الْإِسْرَاءِ: 110] ، أَيْ: بِقِرَاءَتِكَ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: " قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ثُمَّ بَيَّنَ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْقِسْمَةِ فِي قِرَاءَةِ الفاتحة فَدَلَّ عَلَى عِظَمِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِهَا، إِذْ أُطْلِقَتِ الْعِبَادَةُ وَأُرِيدَ بِهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْهَا وَهُوَ الْقِرَاءَةُ؛ كَمَا أَطْلَقَ لَفْظَ الْقِرَاءَةِ وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ فِي قَوْلِهِ: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الْإِسْرَاءِ: 78] ، وَالْمُرَادُ صَلَاةُ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ اتِّفَاقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ".(فتسمية العبادة بجزء منها يدل على انه ركنٌ فيها وهذا يدل على ان الفاتحة ليست من اسمائها الصلاة وانما يطلق على جزء من الصلاة يصدق عليه انه ركن فيها وهو قراءة الفاتحة اثناء الصلاة والمراد ان هذه القراءة ركن في الصلاة).

(ثم قال):" وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فِي مَسْأَلَةٍ نَذْكُرُهَا فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ هَلْ يَتَعَيَّنُ لِلْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، أَمْ تُجْزِئُ هِيَ أَوْ غَيْرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ، فَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا لَا تَتَعَيَّنُ، بَلْ مَهْمَا قَرَأَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ أَجْزَأَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَاحْتَجُّوا بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [الْمُزَّمِّلِ: 20] ، وَبِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قِصَّةِ الْمُسِيءِ صَلَاتَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: " إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ " (متفق عليه) قَالُوا: فَأَمَرَهُ بِقِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ الْفَاتِحَةَ وَلَا غَيْرَهَا، فَدَلَّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَتَعَيَّنُ قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا تُجْزِئُ الصَّلَاةُ بِدُونِهَا، وَهُوَ قَوْلُ بَقِيَّةِ الْأَئِمَّةِ: مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابُهُمْ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ؛ وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، حَيْثُ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: " مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاج " وَالْخِدَاجُ هُوَ: النَّاقِصُ كَمَا فسَّر بِهِ فِي الْحَدِيثِ: " غَيْرُ تَمَامٍ ". وَاحْتَجُّوا -أَيْضًا-بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ " (متفق عليه) . وَفِي صَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ وَابْنِ حِبَّانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ " وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، وَوَجْهُ الْمُنَاظَرَةِ هَاهُنَا يَطُولُ ذِكْرُهُ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى مَأْخَذِهِمْ فِي ذَلِكَ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّهُ تَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا تَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي مُعْظَمِ الرَّكَعَاتِ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَكْثَرُ الْبَصْرِيِّينَ: إِنَّمَا تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصَّلَوَاتِ، أَخْذًا بِمُطْلَقِ الْحَدِيثِ: " لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ "([5]).

---

[5] - ومن مسائل المتعلقة بهذه السورة الخلاف في قراءة المأموم خلف الإمام في الجهرية بين العلماء تَرَاوَحَ بين ثلاثة مذاهب : طرفين ووسط :

. .. المذهب الأول : وهو مذهب القائلين بوجوب قراءة الفاتحة مطلقا ، على المنفرد والإمام والمأموم في السرية والجهرية ، وهو الجديد من قولي الشافعي ومذهب البخاري وكثير من المُحَدِّثين . قال البخاري: "قال الحسن وسعيد بن

جبير وميمون بن مهران، ومالا أحصى من التابعين، وأهل العلم: إنه يقرأ خلف الإمام وإن جهر، وكانت عائشة رضي الله عنها تأمر بالقراءة خلف الإمام" .
وقال :"وكان سعيد بن المسيب، وعروة والشعبي، وعبيد الله بن عبد الله، ونافع بن جبير، وأبو المليح، والقاسم بن محمد، وأبو مجلز، ومكحول، ومالك بن عون، وسعيد بن أبي عروبة، يرون القراءة" .
قال مجاهد: "إذا لم يقرأ خلف الإمام أعاد الصلاة" وكذلك قال عبد الله ابن الزبير.
ذكره البخاري في "القراءة خلف الإمام" (ص 10 - 11) ، والبيهقي في "القراءة خلف الإمام" (ص 105) .
وقال الترمذي في "سننه" :
"واختار أكثر أصحاب الحديث ألا يقرأ الرجل إذا جهر الإمام بالقراءة، وقالوا: يتبع سكتات الإمام."
وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: أنا أقرأ خلف الإمام والناس يقرءون، إلا قوما من الكوفيين، وأرى أن من لم يقرأ صلاته جائزة ."

. .. المذهب الثاني : وهو مذهب القائلين بعدم وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في السرية والجهرية ، وهو مذهب الحنفية .
. .. المذهب الثالث : يقول بوجوب قراءة الفاتحة على الإمام والمنفرد والمأموم في الركعات التي يسر فيها الإمام أو لا يسمع فيها المأموم قراءة إمامه ، أما الركعات الجهرية فلا تجب عليه قراءة الفاتحة ، ويستحب له استحبابا أكيدا الإنصات لقراءة الإمام ، وهذا مذهب المالكية والرواية المنصورة في مذهب أحمد ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد حكاية الإجماع على هذا القول ، وذكر شيخ الإسلام أيضا أنه المتواتر عن الصحابة والتابعين .
. .. فأما ما استدل به البخاري والشافعي رحمهما الله على وجوب قراءة الفاتحة مطلقا (منفردا وإماما ومأموما في السرية والجهرية) فهو ما رواه البخاري وغيره في صحيحه قال : حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا سُفْيانُ قال حدثنا الزُّهْرِي عن محمود بن الربيع عن عُبَادَة بن الصامِت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَاب] .
وما جاء في سنن أبي داود من رواية محمد بن إسحاق عن مَكْحُول عن محمود بن الربيع عن عبادة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ثقلت عليه القراءة في الفجر ، فلما فرغ قال :[لعلكم تقرءون خلف إمامكم ؟ قلنا : نعم ، قال : فلا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرا بفاتحة الكتاب] .
واجيب أن هذا الحديث ضعيف فيه ثلاث عِلَلٍ :
الأولى: ... أنه من رواية مكحول وهو مُدَلِّسٌ وقد عَنْعَنَ في جميع الطرق المروية عنه .
الثانية : ... أنه من رواية محمد بن إسحاق ، وهو وإن كان صرح بالتحديث فقد انفرد بهذه الزيادة : (لعلكم ..) ولذلك لم يعتمدها البخاري في صحيحه فروى أصل الحديث : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) .
وقد قال الحافظ أبو زُرْعَة الرَّازي (انظر سير أعلام النبلاء 80/13) : إذا انفرد ابن إسحاق بالحديث لا يكون حجة ، ثم روى له حديث القراءة خلف الإمام ، وما ورد من متابعات لمحمد بن إسحاق فلا يُعَوَّل عليها لضعفها . وقد ضعفه الالباني في صحيح الجامع . .. . وقال في حاشيته على مشكاة المصابيح عند التعليق على هذا الحديث (270/1) :هذا لا يدل على وجوب الفاتحة وراء الإمام كما يظن ، بل على الجواز ، لأن الاستثناء جاء بعد النهي ، وذلك لا يفيد إلا الجواز ، وله أمثلة في الاستعمال القرآني ، وتفصيل ذلك لا يتسع له المقام ، فمن شاء التحقيق فليرجع إلى كتاب (فيض القدير) للشيخ أنور الكَشْمِيري ، ويشهد لذلك ما في رواية ثابتة في الحديث بلفظ:[لا تفعلوا إلا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب] ، فهذا كالنص على عدم الوجوب فتأمل . أهـ
ففي هذا الحديث بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم هل يقرءون وراءه بشيء أم لا ؟ ومعلوم أنه لو كانت القراءة واجبة على المأموم لكان قد أمرهم بذلك ، فأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ، ولو بين ذلك لهم لفعله عامتهم ، ولم يكن ليفعله الواحد والاثنان منهم ، ولم يكن يحتاج إلى استفهامه ، فهذا دليل أنه لم يوجب عليهم قراءة خلفه حال الجهر ، ثم إنه لما علم أنهم يقرءون نهاهم عن القراءة بغير أم الكتاب ، وما ذكر من التباس القراءة عليه تكون بالقراءة معه حال الجهر ، سواء كان بالفاتحة أو غيرها ، فالعلة متناولة للأمرين ، فإن ما يوجب ثقل القراءة والتباسها على الإمام منهي عنه .
فمعنى الحديث : لا تقرءوا خلف الإمام بأي قرآن لئلا تَلْبِسُوا عليه قراءته ، إلا بفاتحة الكتاب فاقرءوا بها على وجه لا يحصل به الالتباس أو الإلباس . (وهو مطابق للمذهب الصحيح أن قراءة الفاتحة للمأموم خلف الإمام في الجهرية غير واجبة وترك القراءة غير واجب أيضا) .

وعلى افتراض ان حديث الامر بالقراءة عام للمأموم في كل الأحوال والإمام والمنفرد ، فهو مخصوص بقوله تعالى : { وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون } ولو لم يكن من فضل الانصات هنا الا ن تناله رحمة الله بنص الآية لكفاه ذلك غنيمة .

. .. وقد نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة . ذكر الإجماع على ذلك الإمام أحمد بن حَنْبَل ، فمن زعم أن هذه الآية عامة فقد خالف العموم بوجوب الإنصات والقراءة ، ومن زعم أنها خاصة بالقراءة خارج الصلاة فقد خالف الإجماع في أنها نزلت في القراءة في الصلاة ، وخالف الإجماع على أن الاستماع للقراءة خارج الصلاة ليست واجبة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (269/23) ، وعلى فرض أنها خاصة بالاستماع للقراءة خارج الصلاة ، فدخول استماع المأموم إلى الإمام في الآية من باب أولى ، لأنه إذا كان الاستماع إلى القارئ خارج الصلاة واجبة حيث لا يجب الائتمام به فاستماع المأموم أوجب حيث ثبت بالدليل الصحيح الصريح وجوب ائتمام المأموم بالإمام في قوله صلى الله عليه وسلم : [إنما جعل الإمام ليؤتم به].

-كما أن الأمر بالإنصات في الآية {وإذا قرئ القرآن} المقصود به حصول التدبر ، ولا ينازع المخالف أن المأموم لا يقرأ وراء الإمام في الجهرية مازاد على الفاتحة ، ويستدلون بذات الآية على لزوم الاستماع إلى ما زاد على الفاتحة ، لأنه من القرآن ، والفاتحة أم القرآن ، وهي التي لا بد من قراءتها في كل صلاة ، وهي أفضل سور القرآن ، وهي التي لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها فيمتنع أن يكون المراد من الآية الاستماع إلى كل القرآن دون الفاتحة مع إطلاق لفظ الآية وعمومها ، وإذا كان المأموم مأمورا)إجماعا (بالاستماع إلى الزائد عن الفاتحة مع أن قراءة الزائد مستحبة ، فكيف لا يؤمر بالاستماع لقراءة الإمام الفاتحة وهي الفرض وكيف يؤمر باستماع التطوع دون استماع الفرض

وايضا فأن حديث عبادة(وفيه [فلا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرا بفاتحة الكتاب]) مخصوص بحديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا ، وعلمنا صلاتنا ، فقال:[أقيموا صفوفكم ، ثم ليؤمكم أحدكم ، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا].

.. قال شيخ الإسلام في الاستدلال بهذا الحديث : فإن الإنصات إلى قراءة القارئ من تمام الائتمام به ، فإن من قرأ على قوم لا يستمعون لقراءته لم يكونوا مؤتمين به .

-كما أن متابعة المأموم للإمام مقدمة على غيرها ، حتى في الأفعال ، فإذا أدركه ساجدا سجد معه وإذا أدركه في وتر من صلاته تشهد عقب الوتر ، وهذا لو فعله منفردا لم يَجُزْ ، وإنما فعله لأجل الائتمام ، فيدل على أن الائتمام يجب به ما لا يجب على المنفرد ويسقط به ما يجب على المنفرد .

قال شيخ الإسلام : والمقصود بالجهر استماع المأمومين ، ولهذا يُؤَمِّنون على قراءة الإمام في الجهر دون السر ، فإذا كانوا مشغولين بالقراءة فقد أُمِرَ أن يقرأ على قوم لا يستمعون لقراءته ، وهو بمنزلة أن يحدث من لم يستمع لحديثه ، ويخطب من لم يستمع لخطبته ، وهذا سفه تنزه عنه الشريعة ، ولهذا رُوِيَ في الحديث : [مثل الذي يتكلم والإمام يخطب كمثل الحمار يحمل أسفارا] فهكذا إذا كان يقرأ والإمام يقرأ عليه . أهـ

. ويخصص حديث عبادة أيضا ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه ، وصححه الشيخ أحمد شاكر من طريق الزُّهْرِي عن ابن أُكَيْمَة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاةٍ جَهَرَ فيها ، فقال : [هل قرأ معي أحد منكم آنفا ؟ فقال رجل : نعم يا رسول الله ، قال : إني أقول ما لي أُنَازَعُ القرآن] قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة في الصلوات حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف النُّقَّاد في هذه الزيادة : فانتهى الناس .. هل هي من كلام أبي هريرة أو من كلام الزهري .

ورجح شمس الدين ابن القَيّم أن قوله : فانتهى الناس ، من كلام أبي هريرة ، فقال في حاشيته على سنن ابي داود :" وَقَوْله : " فَانْتَهَى النَّاس عَنْ الْقِرَاءَة " مِنْ قَوْل الزُّهْرِيّ , قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الذُّهْلِيُّ صَاحِب الزَّهْرِيَّات , وَالْبُخَارِيُّ , وَأَبُو دَاوُدَ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِرِوَايَةِ الْأَوْزَاعِيّ , حِين مَيَّزَهُ مِنْ الْحَدِيث , وَحَمَلَهُ مِنْ قَوْل الزُّهْرِيّ . قَالَ وَكَيْف يَكُون ذَلِكَ مِنْ قَوْل أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ يَأْمُر بِالْقِرَاءَةِ خَلْف الْإِمَام . فِيمَا جَهَرَ فِيهِ وَفِيمَا خَافَتْ وَقَالَ غَيْره هَذَا التَّعْلِيل ضَعِيف , فَإِنَّ اِبْنَ أُكَيْمَةَ مِنْ التَّابِعِينَ وَقَدْ حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيث وَلَمْ يُنْكِرهُ عَلَيْهِ أَعْلَم النَّاس بِأَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَلَا يُعْلَم أَحَد قَدَحَ فِيهِ وَلَا جَرَحَهُ بِمَا يُوجِب تَرْك حَدِيثه وَمِثْل هَذَا أَقَلّ دَرَجَات حَدِيثه أَنْ يَكُون حَسَنًا . كَمَا قَالَ التِّرْمِذِيُّ . وَقَوْله " فَانْتَهَى النَّاس " وَإِنْ كَانَ الزُّهْرِيُّ قَالَهُ . فَقَدْ رَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيّ قَوْل أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَيُّ تَنَافٍ بَيْن الْأَمْرَيْنِ ؟ بَلْ كِلَاهُمَا صَوَاب , قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا قَالَ مَعْمَرٌ وَقَالَهُ الزُّهْرِيُّ كَمَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ وَقَالَهُ مَعْمَرٌ أَيْضًا كَمَا قَالَ أَبُو دَاوُدَ . فَلَوْ كَانَ قَوْل الزُّهْرِيّ لَهُ عِلَّة فِي قَوْل أَبِي هُرَيْرَةَ لَكَانَ قَوْل مَعْمَرٍ لَهُ عِلَّة فِي قَوْل الزُّهْرِيّ , وَأَنْ نَجْعَل ذَلِكَ كَلَام مَعْمَرٍ . وَقَوْله : "

كَيْف يَصِحّ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ , وَهُوَ يَأْمُر بِالْقِرَاءَةِ خَلْف الْإِمَام ؟ " فَالْمَحْفُوظ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ " اِقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسك " وَهَذَا مُطْلَق لَيْسَ فِيهِ بَيَان فِيهِ أَنْ يَقْرَأ بِهَا حَال الْجَهْر . وَلَعَلَّهُ قَالَ لَهُ يَقْرَأ بِهَا فِي السِّرّ وَالسَّكَتَات , وَلَوْ كَانَ عَامًّا فَهَذَا رَأْي لَهُ خَالَفَهُ فِيهِ غَيْره مِنْ الصَّحَابَة وَالْأَخْذ بِرِوَايَتِهِ أَوْلَى ".

وزاد الأمر تحقيقا الشيخ أحمد شاكر في شرحه للمسند . وعلى ذلك فقول أبي هريرة حجة في نقل عمل الصحابة بما يعد إجماعا منهم على ذلك ، ولا يقدح في هذا النقل من أبي هريرة زعم من زعم أن هذا مخالف لمذهبه في وجوب القراءة خلف الإمام ، فإن هذا لم يثبت صريحا عن أبي هريرة ، بل ثبت خلافه كما سيأتي ، ولو ثبت مخالفة أبي هريرة للحديث لكانت الحجة في الحديث وفي عمل الصحابة الذين نقل عنهم . ولو تنزلنا وذهبنا إلى أن قوله : فانتهى الناس .. من كلام الزهري فلا تنتقص الحجة أيضا بذلك .

. .. قال شيخ الإسلام : وهذا إذا كان من كلام الزهري فهو من أدل الدلائل على أن الصحابة لم يكونوا يقرءون في الجهر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الزهري من أعلم أهل زمانه أو أعلم أهل زمانه بالسنة ، وقراءة الصحابة خلف النبي صلى الله عليه وسلم إذا كانت مشروعة واجبة أو مستحبة تكون من الأحكام العامة التي يعرفها الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فيكون الزهري من أعلم الناس بها ، فلو لم يبينها لاستدل بذلك على انتفائها ، فكيف إذا قطع الزهري بأن الصحابة لم يكونوا يقرءون خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر .

. .. ويزيد هذا الوجه وضوحا الوجه التالي :

ـوقد نقل الإجماع الإمام أحمد على أنه لا تجب القراءة على المأموم حال الجهر . ولا شك أن نقل أحمد للإجماع ـ على تَشَدُّدِهِ المعروف في الإجماع لدرجة أن كَذَّب مُدَّعِيَه ـ لَدَلِيْلٌ على صحة هذا الإجماع ، وقد ذكر هذا الإجماع عن الإمام أحمد الإمام أبو داود في مسائله عن أحمد صفحة (37) ، ونقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية وهو البصير بروايات أحمد .

. .. ويقول شيخ الإسلام أيضا : ومعلوم أن النهي عن القراءة خلف الإمام في الجهر متواتر عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، كما أن القراءة خلف الإمام في السر متواترة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم بل ونفي وجوب القراءة على المأموم مطلقا مما هو معروف عنهم .أهـ

ومما يزيد هذا الإجماع وضوحا ما ورد عن الصحابة من آثار صحيحة صريحة في المنع من القراءة خلف الإمام ، وهو محمول على الجهرية لما سبق .

فعن جابر بن عبد الله قال : من صلى ركعة لم يقرأ فيها ، لم يصل إلا وراء الإمام . رواه مالك في الموطأ ، وقال الدارقطني : الصواب موقوف . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (420/2) : سنده صحيح .

. .. وعن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل : هل يقرأ خلف الإمام ؟ يقول : إذا صلى أحدكم خلف الإمام تجزئه قراءة الإمام ، وإذا صلى وحده فليقرأ ، قال نافع : وكان ابن عمر لا يقرأ خلف الإمام . رواه مالك وعبد الرزاق . وقال الألباني : سنده صحيح .

. .. وعن عطاء بن يَسَار أنه سأل زيد بن ثابت عن القراءة مع الإمام فقال : لا قراءة مع الإمام في شيء . رواه البَيْهَقِي وقال الألباني : سنده صحيح .

. .. وعن أبي وائل أن رجلا سأل ابن مسعود عن القراءة خلف الإمام فقال : أَنْصِتْ للقرآن ، فإن في الصلاة شُغْلاً ، وسيكفيك ذلك الإمام . وقال الألباني : سنده صحيح .

. .. قال شيخ الإسلام : وابن مسعود وزيد بن ثابت هما فقيها أهل المدينة وأهل الكوفة من الصحابة ، وفي كلامهما تنبيه على أن المانع : إنصاته لقراءة الإمام . أهـ

. .. وعن علي بن أبي طالب قال : من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة . رواه البخاري في جزئه والدارقطني وابن أبي شَيْبَة بسند قال فيه الألباني : جيد .

. .. وعن كثير بن مُرَّة أن أبا الدَّرْدَاء سئل أفي كل صلاة قراءة ؟ فقال : نعم . فقال رجل : وجبت هذه . فقال أبو الدرداء : ما أرى الإمام إذا أم القوم إلا قد كفاهم . رواه النسائي والدارقطني والبيهقي وقال : الصواب أن أبا الدرداء قال ذلك لكثير بن مرة . وقال الألباني : سنده صحيح .

ـوقد ثبت النهي عن منازعة الإمام في غير ما حديث ، ولا شك أن قراءة الفاتحة مع الإمام فيه منازعة من الجانبين ، فمن تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : (إني أقولُ ما لي أُنَازَعُ القرآن) رواه أحمد وغيره وقد مَرَّ .

. .. ومن تلك الأحاديث ما جاء عن ابن مسعود قال : كانوا يقرءون خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (خَلَّطْتُمْ علي القرآن) رواه أحمد في المسند والبخاري في جزئه وأبو

يَعْلَى والبَزَّار وقال الهَيْثَمِي في المجمع : ورجال أحمد رجال الصحيح . وحسن إسناد أحمد الأستاذ الأرْنَاؤُوط في تخريجه للمسند .
. .. وعن عمران بن حصين أن رجلا قرأ خلف النبي صلى الله عليه وسلم : في الظهر أو العصر ، فقال أيكم قرأ بـ (سبح اسم ربك الأعلى) فقال رجل من القوم : أنا ، فقال : (قد عرفت أن بعضكم خالَجَنِيْهَا) . رواه مسلم وابن حبان .
والمخالجة : المجاذبة والمنازعة (انظر القاموس المحيط مادة خلج) .
وكل ما مر صحيح أو حسن إن شاء الله .
-كما أن الاستماع إلى قراءة الإمام أمر دل عليه القرآن دلالة قاطعة ، لأن هذه الأمور الظاهرة التي يحتاج إليها جميع الأمة فكان بيانها في القرآن مما يحصل به مقصود البيان ، وجاءت السنة موافقة للقرآن .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : لو كان القراءة في الجهر واجبة على المأموم للزم أحد أمرين : إما أن يقرأ مع الإمام وإما أن يجب على الإمام أن يسكت له حتى يقرأ ، ولم نعلم نزاعا بين العلماء أنه لا يجب على الإمام أن يسكت لقراءة المأموم بالفاتحة ولا غيرها ، وقراءته معه منهي عنها بالكتاب والسنة ، فثبت أنه لا تجب عليه القراءة معه في حال الجهر .
. .. بل نقول : لو كانت قراءة المأموم في حال الجهر والاستماع مستحبة ، لاستحب للإمام أن يسكت لقراءة المأموم ، ولا يستحب للإمام السكوت ليقرأ المأموم عند جماهير العلماء ، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم .
. .. وحجتهم في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يسكت ليقرأ المأمومون ، و لا نقل أحد هذا عنه أحد ، بل ثبت عنه في الصحيح سكوته بعد التكبير للاستفتاح ، وفي حديث أبي هريرة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن سكوته في أول الصلاة ، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكت ليقرأ الناس الفاتحة قدر سكوت الاستفتاح لسأله الصحابة عن ذلك لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله ، كيف وقد نقلوا لنا ما أقل شأنا من ذلك .
. .. وفي السنن أنه كان له سكتتان : سكتة في أول القراءة وسكتة بعد الفراغ من القراءة ، وهي سكتة لطيفة للفصل لا تتسع لقراءة الفاتحة ، ولم يقل أحد إنه كان له ثلاث سكتات ولا أربع سكتات ، فمن نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سكتات أو أربع فقد قال قولا لم ينقله عن أحد من المسلمين ، والسكتة التي عقب قوله : (ولا الضالين) من جنس السكتات التي عند رؤوس الآي ، ومثل هذا لا يسمى سكوتا ، ولهذا لم يقل أحد من العلماء إنه يقرأ في مثل هذا .
ومعلوم أنه لم يسكت إلا سكتتين ، فعلم أنه أحداهما طويلة والأخرى بكل حال لم تكن طويلة متسعة لقراءة الفاتحة .
. .. وأيضا لو كان الصحابة كلهم يقرءون الفاتحة خلفه إما في السكتة الأولى ، وإما في الثانية لكان هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، فكيف ولم ينقل هذا عن أحد من الصحابة أنهم كانوا في السكتة الثانية خلفه يقرءون الفاتحة ، مع أن ذلك لو كان الإمام لا سبيل إليها فمتى يقرأ ؟ فإن قيل : يقرأ في سكتة الإمام ، قلنا: السكوت لا يلزم الإمام فكيف يركب فرض على ما ليس بفرض.
ففي قراءة المأموم خلف الإمام في الجهرية مخالفة لأربعة أوامر :
الأول ... : ... عدم الإنصات .
الثاني ... : ... عدم الائتمام .
الثالث ... : ... المنازعة أي فعل ما يفعله الإمام في وقت واحد .
الرابع ... : ... عدم التدبر والخشوع .
. .. وأما الاستماع للإمام في الجهرية فيحقق المقصود من القراءة وهو التدبر مع موافقة الأوامر الأخرى.
فلا يجوز تخصيص حديث أبي موسى الأشعري أو حديث أبي هريرة في الأمر بالإنصات بحديث عبادة ، فيكون المعنى : الأمر بالإنصات فيما عدا الفاتحة . لأن حديث أبي موسى وأبي هريرة في قراءة المأموم خلف الإمام ومع ضَمِيْمَة قوله تعالى : { فاستمعوا له وأنصتوا} يكون قاطعا في إرادة المأموم خلف الإمام في الجهرية فهو أخص مطلقا بحيث لا يحتمل التخصيص ، أما حديث عبادة فعام في المأموم وغيره بإجماع الطرفين ، وعليه فيتعين أن يكون حديث أبي موسى وأبي هريرة هو المخصص لعموم حديث عبادة لا العكس .
-كما أن حديث أبي موسى وحديث أبي هريرة وآية الأعراف لم يدخلها التخصيص قط بنص أو إجماع ، أما حديث عبادة فمخصوص بحديث أبي بكرة في المسبوق ، ومخصوص بالصلاة بإمامين ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى بالناس وقد سبقه أبو بكر ببعض الصلاة قرأ من حيث انتهى أبو بكر ولم يستأنف قراءة الفاتحة في هذا الموضع فعن المأموم أولى . وإذا تعارض عمومان أحدهما محفوظ والآخر مخصوص وجب تقديم المحفوظ .
-كما أن تخصيص آية الأعراف وحديثي أبي موسى وأبي هريرة يلزم منه تأويل المعنى الظاهر لها ، أما العكس فلا يلزم التأويل لأن حديث عبادة خاص بالإمام كما أسلفنا ، وقد تقرر أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل .

-كما أن العمل بعموم آية الأعراف وحديثي أبي موسى وأبي هريرة لا يحصل به إهمال مدلول النصوص الأخرى وتركها لأن المستمع متحقق للقراءة كما سيأتي بيانه ، وقد تقرر أن إعمال الأدلة كلها أولى من إهمال بعضها .
-كما أن قوله صلى الله عليه وسلم : [إنما جُعِلَ الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا] فيه بيان لأمرين :
الأول ... : ... قوله : [إنما جعل الإمام ليؤتم به] يفيد أن حالة الائتمام غير حالة الانفراد وأن لها أحكام تخصها ، فلما نص عليها علمنا أن ما نص عليه من الأحكام التي تخص حالة الإمامة خارجة عن مدلول النصوص الأخرى ، وحديث : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) عامة للإمام وغيره ، فتعين حمل العام على الخاص .
الثاني ... : ... بيان علة الأمر بالإنصات ، حيث رتب الأمر بالإنصات على الائتمام بالفاء عن طريق الإيماء والتنبيه ، وهو من المسالك التي تفيد العِلِّيَة عند الأصوليين ، فعلم أن غير المنصت ليس بمؤتم . أما المستمع فمؤتم ومحقق لمقصود القراءة وهو التدبر ، فعلم أن المستمع ممتثل لكل الأوامر الواردة في المسألة ، أما غير المنصت فمخالف لبعضها ، وما يتحقق به الامتثال من كل الوجوه أولى مما تحصل به المخالفة من بعض الوجوه .
- قال ابن العربي في حديث أبي موسى الأشعري : [وإذا قرأ فأنصتوا]، قال : وهذا نص لا مطعن فيه ، يعضده القرآن والسنة وقد غمزه الدارقطني بما لا يقدح فيه . أهـ
- ويخصص حديث عبادة : حديث عبد الله بن شَدَّاد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة] .
. .. قال شيخ الإسلام : وهذا الحديث رُوِيَ مرسلا ومسندا ، لكن أكثر الأئمة الثقاة رووه مرسلا عن عبد الله بن شداد عن النبي صلى الله عليه وسلم وأسنده بعضهم ، ورواه ابن ماجة مسندا ، وهذا المرسل قد عَضَّدَه ظاهر القرآن والسنة ، وقال به جماهير أهل العلم من الصحابة والتابعين ، ومُرْسِلُه من أكابر التابعين ، ومثل هذا المرسَل يحتج به باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد نص الشافعي على جواز الاحتجاج بمثل هذا المرسَل (أي الذي يعضده ظاهر القرآن وعمل عامة أهل العلم به) . وليراجع هذا الحديث وتصحيح العلماء له نصب الراية للزيلعي وإرواء الغليل للألباني .
. .. وعلى ذلك فدلالة هذا الحديث قاطعة في نفي القراءة عن المأموم ، لكنه مخصوص بالأمر بالقراءة في السرية لأن الإمام حينئذ ليست له قراءة معتبرة يمكن للمأموم أن يستمع إليها .
-وبضميمة حديث عبد الله بن شداد مع حديث عبادة لا يكون هناك تعارض ألبتة بين نصوص المسألة ، فيحمل قوله صلى الله عليه وسلم [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] على أنه يستمع فتحصل له القراءة المأمور بها .
- قال شيخ الإسلام : والمصلحة الحاصلة للمأموم بالقراءة يحصل بالاستماع ما هو أفضل منها ، بدليل استماعه لما زاد على الفاتحة ، فلولا أنه يحصل له بالاستماع ما هو أفضل من القراءة لكان الأولى أن يفعل أفضل الأمرين ، وهو القراءة ، فلما دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الاستماع أفضل له من القراءة، علم أن المستمع يحصل له أفضل مما يحصل للقارئ ، وهذا المعنى موجود في الفاتحة وغيرها ، فالمستمع لقراءة الإمام يحصل له أفضل مما يحصل بالقراءة وحينئذ فلا يجوز أن يُؤْمَرَ بالأدنى ويُنْهَى عن الأعلى .
. .. وثبت أنه في هذه الحال قراءة الإمام له قراءة كما قال ذلك جماهير السلف والخلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وفي ذلك الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم : [من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة] أهـ
-والاستماع للإمام له حكم القراءة ، بل يُطْلَقُ عليه أنه قراءة شرعا ولغة وعرفا .
. .. أما شرعا فلما يلي :
فلقوله صلى الله عليه وسلم : [من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة] .
وقال الله تبارك وتعالى : { وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم }. قال : {قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} فتأمل قوله تعالى : { قد أجيبت دعوتكما } ، كيف أثبت وجود دعوتين حال كون الداعي هو موسى فقط لقوله تعالى : { وقال موسى ..} ، والمعلوم أن الداعي الثاني هو هارون الذي كان يستمع ويؤمن ، إذ لو كان يدعو معه لقال : وقال موسى وهارون .
ومما سبق يعرف أن المستمع له حكم القارئ بنص القرآن والحديث .
. .. وأما عرفا : فمن طالع كتابا بعينه وفهمه وتدبره دون أن يتلو حروفه أو يتحرك لسانه يصح له في عرف الناس أن يقول : قرأت هذا الكتاب .
-وإذا افترضنا أن جميع المأمومين يقرءون خلف الإمام ، فيكون جهر الإمام حينئذ لمن لا يستمع له ، فلا يكون هناك فائدة في جهر الإمام أصلا، ولا يكون هناك فائدة لقوله صلى الله عليه وسلم : [إذا أمَّنَ فَأَمِّنوا] لأنهم يكونون قد أمنوا على قرآن لم يستمعوه ولا استمعه أحد منهم .

- بقي أن نرد على شبهة أخيرة : وهي أنه لا تعارض بين أحاديث النهي عن المنازعة وبين الأمر بقراءة الفاتحة مطلقا ، حيث يستطيع أن يقرأ بالمخافتة فلا تحصل المنازعة ولا المخالجة .
. .. والجواب أن المخافتة ولو كانت بأدنى حس تَلْبِسُ على الإمام ، قال شيخ الإسلام : وهذا أمر محسوس . ويجاب أيضا مع ذلك بأن المأموم لو خافت فستحصل المنازعة ، لأنه سينازع القراءة مع الإمام ، فإما أن يهوش على الإمام وهذا مجمع على كراهته ، وإما سيهوش على نفسه فلا يحصل التدبر الذي هو مقصود القراءة . (الصواب يهوش ، وأما يشوش فليس بعربي) .
. .. وكذلك من أجاز القراءة في السكتات التي تعقب آيات الفاتحة ، فإذا قرأ الإمام (الحمد لله رب العالمين) قرأ المأموم (الحمد لله رب العالمين) ، فهذا لم يَقُلْ به أحد من أهل العلم ، حاشا أبا البركات جد شيخ الإسلام . ومع أنه لا دليل عليه فإنه يناقض الواقع في كثير من الأحوال ، فما الحل لو لم يسكت الإمام على رؤوس الآي وقرأ الفاتحة في نَفَسٍ واحد ؟ أو كانت السكتات قصيرة جدا بحيث تستحيل القراءة المعتبرة فيها ؟!!
-ومما يدل على أن حديث عبادة : [لا صلاة ..] لا يدل على العموم أن كثيرا من الأحاديث التي وردت على نفس صيغة النفي للجنس لم تدل على العموم لورود المخصِّص بأدلة أخرى ، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سمع النداء فلم يُجِبْ فلا صلاة له إلا من عذر) رواه أبو داود والبيهقي والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعا .
والجمهور على أن صلاة الرجل في بيته مع عدم وجود العذر صحيحة مع اختلافهم في لحوق الإثم والكراهة .
. .. وقول النبي صلى الله عليه وسلم : [لا بِرَّ أن يُصام في السفر] رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمرو وقال الألباني : حسن . ومعلوم أن المذهب القائل باستحباب الصوم في السفر لمن أطاقه مذهب مشهور معتبر .
. .. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : [لا صلاة بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان] رواه مسلم وأبو داود عن عائشة مرفوعا . ومعلوم أن الصلاة بحضرة الطعام ليست باطلة على قول عامة أهل العلم .
. .. كل هذا يدل على أن (لا) التي لنفي الجنس نص في عموم النفي ولكنها لا تمنع التخصيص كما ظهر لك من الأمثلة ، وبهذا يتجلى خواء قول من قال إن حديث عبادة قطعي في بطلان صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب .
وبعد فهذه الأوجه التي رددنا بها على استدلال من قال بوجوب قراءة الفاتحة مطلقا بحديث عبادة بن الصامت ، قصدنا بها بيان القول الأجدر بالاتباع والأحرى بالعمل والتطبيق ، وكذلك القول المحقق للمقاصد الشرعية والمصالح المعتبرة .
مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما ذهبنا إليه هو قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والمذاهب المتبوعة بل حكى على هذا القول الإجماع إمام جليل هو الإمام أحمد بن حنبل .
وغني عن القول أن المسألة من فروع العبادات التي يلزم العالم المجتهد أن يتحرى فيها الدليل ، وأما المقلد فيتحرى اتباع العالم التقي الذي يطمئن لتقليده .
وأجمع العلماء أن صلاة كلا الفريقين صحيحة عند أصحابهما ، فيجوز ائتمام شافعي بحنفي والعكس ، أما الحكم ببطلان الصلاة فهو باعتبار قول القائل به ، فمن تبنى وجوب قراءة الفاتحة للمأموم في الجهرية فلم يقرأ فصلاته باطلة ، وليس صلاة كل من لم يقرأ الفاتحة والحال كهذه أنه تبطل صلاته ، مادام قد اعتبر في قوله بالدليل الشرعي المعتبر .
كل ذلك ليعلم الناس أن القول بعدم وجوب الفاتحة قول معتبر ، وليس قولا خارجا عن أقوال أهل السنة كما يزعم البعض ، بل هو قول وجيه بل قوي وراجح تعضده أدلة قوية متكاثرة من القرآن والسنة والإجماع والقياس .
ولا سبيل إلى احتكار الحق في مثل هذه المسائل ، بل ينبغي أن يتغافر أهل العلم فيما بينهم وأن يسعهم ما وسع السلف رضوان الله عليهم. (نقلا عن الرد على من قال بوجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الصلاة الجهرية لرضا احمد صمدي/ بتصرف)
-قال الشيخ الالباني في صفة الصلاة :" نَسْخُ القراءةِ وراءَ الإمام في الجهرية
وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أجاز للمؤتمين أن يقرؤوا بها وراء الإمام في الصلاة الجهرية ؛ حيث كان في صلاة الفجر ، فقرأ ، فثقلت عليه القراءة ، فلما فرغ ؛ قال : " لعلكم تقرؤون خلف إمامكم ؟ " . قلنا : نعم ؛ هذّاً يا رسول الله ! قال :" لا تفعلوا ؛ إلا [أن يقرأ أحدكم] بـ : { فاتحة الكتاب } ؛ فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها " (خرجه البخاري في " جزء القراءة " (7 و 22) ، وأبو داود (131/1) ، والترمذي (116/2 - 117).وغيرهم. عن عبادة بن الصامت قال : كنا خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الفجر ؛ فقرأ ... الحديث) .
ثم نهاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القراءة كلها في الجهرية ، وذلك حينما " انصرف من صلاةٍ جهرَ فيها بالقراءة (وفي رواية : أنها صلاة الصبح) ، فقال : " هل قرأ معي منكم أحد آنفاً ؟! " .
فقال رجل : نعم ؛ أنا يا رسول الله ! فقال : " إني أقول : ما لي أُنازَع ؟! " .

[قال أبو هريرة :] فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جهر فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، [وقرؤوا في أنفسهم سرّاً فيما لا يجهر فيه الإمام]

قال الخطابي : " معناه : أُدَاخَلُ في القراءة وأُغَالَبُ عليها . وقد تكون المنازعة بمعنى المشاركة والمناوبة ؛ ومنه منازعة الناس في النِّدام " .

قلت : والأنسب في هذا المقام : المعنى الآخر ، وهو المشاركة ؛ بدليل انتهائهم عن القراءة . ولو كانوا فهموا أنه المعنى الأول ؛ لانتهوا عن المداخلة فقط .

قال الخطابي في " المعالم " (205/1) : " هذا الحديث (حديث عبادة)نص بأن قراءة { فاتحة الكتاب } واجبة على من صلى خلف

الإمام ، سواء جهر الإمام بالقراءة ، أو خافت بها " .

ثم قال (206) : " وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ؛ فروي عن جماعة من الصحابة أنهم أوجبوا القراءة خلف الإمام . وروي عن آخرين أنهم كانوا لا يقرؤون . وافترق الفقهاء فيها على ثلاثة أقاويل : فكان مكحول والأوزاعي والشافعي وأبو ثور يقولون : لا بد من أن يقرأ

خلف الإمام فيما يجهر به ، وفيما لا يجهر .

وقال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق : يقرأ فيما أسر الإمام فيه ، ولا يقرأ فيما جهر به (1) .

وقال سفيان الثوري

وأصحاب الرأي : لا يقرأ أحد خلف الإمام ؛ جَهَرَ الإمام أو أَسَرَّ .

واحتجوا بحديث رواه عبد الله بن شداد مرسلاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من كان له إمام ؛ فقراءة الإمام له قراءة " " . انتهى

وقد ذهب إلى مشروعية القراءة خلف الإمام في السرية دون الجهرية الإمامُ الشافعي في القديم ، ومحمدٌ تلميذ أبي حنيفة في رواية عنه اختارها الشيخ علي القاري وبعض مشايخ المذهب ، وهو قول الإمام الزهري ، ومالك ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة من

المحدثين وغيرهم ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

(ثم اجاب رحمه الله عن حديث عبادة فقال) :وفي الاستدلال على ذلك بهذا الحديث الذي نحن بصدده نظر بيّن ؛ وذلك لأنه قد تقرر في كتب الأصول : أن الاستثناء من حكم يدل على نقيضه فحسب ، ولا دلالة له على زيادة حكم . فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تفعلوا " ؛ نهي عن القراءة خلف الإمام في الجهرية ، واستثناؤه قراءة { الفَاتِحَة } يدل على عدم النهي عن قراءة { الفَاتِحَة } ، يعني : عدم كراهتها وحرمتِها . ولا دلالة فيه بوجه من الوجوه على ركنية { الفَاتِحَة } أو وجوبها ، فإن ثبت بدليل آخر ؛ فذاك ، وإلا ؛ فلا دلالة فيه على ما راموا منه من إثبات الوجوب أو الركنية . قال بعض المتأخرين من المحققين الحنفيين : " ونظيره : قوله تعالى : { لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا } ؛ فنهى الله عز وجل عن تصريح المواعدة في العِدَّة ، واستثنى منه التعريض والكناية . فالتعريض والكناية بالاستثناء لم يبق حراماً ؛ لا أنه صار فرضاً أو واجباً ، ولا يبعد أن يكون قريباً من الكراهة .

قال تعالى : { وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ } ؛ فهل هذا الإغماض والمسامحة واجب عند أحد ؟! إنما هو إغضاء على القذى وسحب الذيل على الأذى .

فثبت من هذا الاستثناء : أن الاستثناء بعد النهي لا يفيد الوجوب والركنية ، وإنما يفيد الإباحة ؛ لا سيما إذا وردت هذه الإباحة على سببٍ حادثٍ ؛ لا ابتداءً ؛ فلا يبقى ريبة في أنها إباحة مرجوحة غير مستحسنة ولا مرضية ، ويدل على ذلك : ما رواه ابن أبي شيبة مرسلاً : أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه : " هل تقرؤون خلف إمامكم ؟ " .

قال بعض : نعم . وقال بعض : لا . فقال : " إن كنتم لا بدَّ فاعلين ؛ فليقرأ أحدكم بـ : { فاتحة الكتاب } في نفسه " .

فمن قال : لا ؛ لم يأمره بالإعادة . ثم قال : " إن كنتم فاعلين " - ووزانه وزان قول الله عز وجل : { وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } - ، ثم قال : " فليقرأ أحدكم " ؛ فلفظُ : " أحدكم " ، لغير الاستغراق .

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " ؛ فهو بيان وصف في { الفَاتِحَة } ، وأنها من وصفها كذا ، لا حكم به الآن ها هنا ، والوصف لا يستلزم الحكم ما لم يحكم ، ولم يحكم إلا بالإباحة .

نعم ؛ يكون حكماً سابقاً ، وهو إذن لغير المقتدي ، ثم سبق هنا ثانياً لغير المقتدي على أنه بيان وصف في { الفَاتِحَة } ، فجعلوه حكماً الآن ، وليس كما ينبغي ! وهو كقولنا لابن سَبْعٍ : صلِّ ؛ فإنه لا دين لمن لا صلاة له . فالصلاة ليست

بواجبة على ابن سبع بالإجماع ؛ ولكن علله بقوله : فإنه لا دين لمن لا صلاة له . يعني : لما كان شأن الصلاة هكذا ـ بأنه لا دين لمن لا صلاة له ـ ؛ صح أن يقال لابن سبع : صل . من غير وجوب ولا افتراض .
فكذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تفعلوا إلا بـ : { أم القرآن } ؛ حكم بالإباحة ، ثم علل لاستثناء { الفَاتِحَة } بقوله : " فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها " ، يعني : لما كان شأن { الفَاتِحَة } هكذا ـ وهو أنه لا صلاة إلا بها ـ ؛ صح استثناؤها من النهي ، ولعل ضمير الشأن في قوله : " فإنه لا صلاة ... " . إلخ . أليق بهذا " ا هـ . كلام هذا المحقق .
وهو غاية في التحقيق ، لا يدع مجالاً لأحد بعد هذا البيان أن يحتج به على الوجوب .
ولذلك ؛ فقد تنبه لهذا المعنى الصحيح المحقِّقُ السندي ، فقال : " ظاهر هذه الرواية إباحة القراءة بـ : { الفَاتِحَة } ، ولو جهر الإمام . فلعل من يمنع عنها يقول : إن النهي مقدم على الإباحة عند التعارض . ولا يخفى أن المعارضة حال السر مفقودة ؛ فالمنع حينئذٍ غير ظاهر ؛ ولهذا مال محمد وبعض المشايخ وغيرهم إلى قراءة { الفَاتِحَة } حال السر ، ورجحه علي القاري في " شرح موطأ محمد " ، ورأى أنه
الأحوط " . ا هـ .
وإذ ثبت أن الحديث لا يدل على الوجوب ـ بل على الإباحة ؛ بل الإباحة المرجوحة ـ ؛ دل هو بعد ذلك على أن حديث عبادة ـ وهو حجتهم الثانية والأخيرة على الوجوب ـ لا يشمل المقتدي ؛ بل هو خاص بغيره ـ الإمام والمنفرد ـ ؛ لأنه قد استثنى المؤتم من إيجاب {الفَاتِحَة } عليه ؛ مع الرخصة له بقراءتها ، وإنما يبقى النظر في هذه الرخصة ؛ هل ظلت باقية أم ارتفعت ؟
والظاهر لنا أنها ارتفعت ؛ بدليل الحديث الذي بعد هذا في الكتاب ، ونحن وإن كنا نعترف أنه لا نص لدينا يدل على أنه متأخر الورود عن هذا الحديث الذي نحن بصدد التعليق عليه ؛ فإن النظر الصحيح ، والرأي الرجيح يقتضي ذلك ؛ لأنه ليس من المعقول أن يكون عليه الصلاة والسلام نهى الصحابة عن القراءة وراءه في ابتداء الأمر ، ثم يخالفونه ؛ فيقرؤون وراءه { الفَاتِحَة } وغيرها ! هذا بعيد جداً أن يصدر من الصحابة ، وهم يتلون قوله تعالى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .
فثبت بذلك أن النهي كان بعد الرخصة ، ولعل هذا هو وجه قول علمائنا بنسخ هذا الحديث ـ وإن كنت لم أقف على شيء من كلامهم في توجيه نسخه ـ ، ويكون عليه الصلاة والسلام قد تدرج في النهي ، ولم يفاجئهم بذلك ؛ فنهاهم أولاً عن القراءة وراءه إلا بـ : { الفَاتِحَة } ، ثم نهاهم عن القراءة كلها ، وذلك بمقتضى قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } . قال الشافعي في القديم : " فهذا عندنا على القراءة التي تسمع خاصة " .
ويؤيد ذلك سبب نزول الآية ؛ كما قال مجاهد : كان رسول الله يقرأ في الصلاة ، فسمع قراءة فتى من الأنصار ؛ فنزلت : { وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا } . أخرجه البيهقي (155/2) وغيره .
وقد قيل في سبب نزولها غير ذلك من الأقوال ، ولكن ما ذكرنا أرجحُها ؛ كما بينه أبو الحسنات اللكنوي في " إمام الكلام " (ص 77 - 101) . وقد بسط القول في هذا الكتاب على هذا الحديث تخريجاً ، وتحقيقاً لفقهه ، مع إنصاف ؛ بما لا تجده في كتاب .
فراجعه (187 - 211) .
وقد استفدنا منه بعض ما ذكرنا في هذا البحث . ومثله في التحقيق من الناحية الفقهية العلامة الشيخ محمد أنور الكشميري في كتابه " فيض الباري على صحيح البخاري " (271/2 - 280)
... ثم نقول : قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .لفظ عام ، فإما أن يختص في القراءة في الصلاة ، أو في القراءة في غير الصلاة ، أو يعمهما .
والثاني باطل قطعاً ؛ لأنه لم يقل أحد من المسلمين ، أنه يجبُ الاستماع خارج الصلاة ، ولا يجب في الصلاة . ولأن استماع المستمع إلى قراءة الإمام الذي يأتم به ، ويجب عليه متابعته ؛ أولى من استماعه إلى قراءة من يقرأ خارج الصلاة ، [وذلك] داخل في الآية : إما على سبيل الخصوص ، وإما على سبيل العموم . وعلى التقديرين ؛ فالآية دالة على أمر المأموم بالإنصات لقراءة الإمام ، والمنازع يسلم بذلك إلا في { الفَاتِحَة } ، والآية أمرت بالإنصات إذا قرئ القرآن ، و { الفَاتِحَة } : أم القرآن ، وهي التي لا بد من قراءتها في كل صلاة ، وهي أفضل سور القرآن ، وهي التي لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ؛ فيمتنع أن يكون المراد بالآية الاستماع إلى غيرها دونها ، مع إطلاق لفظ الآية وعمومها ، مع أن قراءتها أكثر وأشهر .
والعادل عن استماعها إلى قراءتها ، إنما يعدل لكون قراءتها أفضل من الاستماع ، وهذا غلط مخالف للنص والإجماع ؛ فإن الكتاب والسنة أمرت المؤتم بالاستماع دون القراءة ، والأمة متفقة على أن استماعه لما زاد على { الفَاتِحَة } أفضل

من قراءة ما زاد عليها . فلو كانت القراءة لما يقرؤه الإمام أفضل من الاستماع لقراءته ؛ لكان قراءة المأموم أفضل من قراءته لما زاد على { الفَاتِحَة } .
وهذا لم يقله أحد ، وإنما نازع من نازع في { الفَاتِحَة } ؛ لظنه أنها واجبة على المأموم ، أو مستحبة .
وجوابه ؛ أن المصلحة الحاصلة له بالقراءة يحصل بالاستماع ما هو أفضل منها ؛ بدليل استماعه لما زاد على { الفَاتِحَة } ، فلولا أنه يحصل له بالاستماع ما هو أفضل من القراءة ؛ لكان الأولى أن يفعل أفضل الأمرين وهو : القراءة . فلما دلَّ الكتاب والسنة ،
والإجماع على أن الاستماع أفضل من القراءة ؛ [دل] على أن المستمع يحصل له أفضل مما يحصل للقارئ ، وهذا المعنى موجود في {الفَاتِحَة } وغيرها ، وحينئذٍ فلا يجوز أن يؤمر بالأدنى ، ويُنهى عن الأعلى ، وثبت أنه في هذه الحال قراءة الإمام له قراءة ؛ كما قال
ذلك جماهير السلف والخلف من الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان ، وفي ذلك الحديث المعروف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:
" من كان له إمام ؛ فقراءة الإمام له قراءة " .
وهذا الحديث روي مرسلاً ومسنداً ، ولكن أكثر الأئمة الثقات رووه مرسلاً عن عبد الله بن شداد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأسنده بعضهم ، ورواه ابن ماجه مسنداً ، وهذا المرسل قد عضده ظاهر القرآن والسنة ، وقال به جماهير أهل العلم من الصحابة والتابعين ،
ومرسِله من أكابر التابعين ، ومثل هذا المرسل يحتج به باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم .
وقد نص الشافعي على جواز الاحتجاج بمثل هذا المرسل .
فتبين أن الاستماع إلى قراءة الإمام أمر دل عليه القرآن دلالة قاطعة ، ولأن هذا من الأمور الظاهرة التي تحتاج إليها الأمة ؛ فكان بيانها في القرآن بما يحصل به المقصود ، وجاءت السنة بموافقة القرآن " .
ثم ذكر هذا الحديث الذي نتكلم عليه ، وقواه ، ورد على البيهقي تضعيفه إياه بنحو ما ذكرنا آنفاً ، ثم ساق أيضاً الحديث الآتي بعده ـثم قال : " وأيضاً : فلو كانت القراءة في الجهر واجبة على المأموم ؛ للزم أحد أمرين : إما أن يقرأ مع الإمام ، وإما أن يجب على الإمام أن يسكت له حتى يقرأ . ولم نعلم نزاعاً بين العلماء أنه لا يجب على الإمام أن يسكت ليقرأ المأموم { الفَاتِحَة } ولا غيرها ، وقراءته
معه منهي عنها بالكتاب والسنة ، فثبت أنه لا تجب عليه القراءة معه في حال الجهر ؛ بل نقول : لو كان قراءة المأموم في حال الجهر مستحبة ؛ لاستحب للإمام أن يسكت ليقرأ المأموم ، ولا يستحب للإمام السكوت ليقرأ المأموم عند جماهير العلماء ، وهذا مذهب
مالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد ، وغيرهم ، وحجتهم في ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يسكت ليقرأ المأمومون ، ولا نقل أحد هذا عنه ؛ بل ثبت عنه في " الصحيح " سكوته بعد تكبيرة الافتتاح .
وفي " السنن " : أنه كانت له سكتتان : سكتة في أول القراءة ، وسكتة بعد القراءة ، وهي لطيفة للفصل ؛ لا تتسع لقراءة { الفَاتِحَة } ، وقد روي أن هذه السكتة كانت بعد { الفَاتِحَة } ، ولم يقل أحد منهم أنه كان له ثلاث سكتات ، ولا أربع سكتات ، فمن نقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث سكتات ، أو أربعاً ؛ فقد قال قولاً لم ينقله عنه أحد من المسلمين ، والسكتة التي عقب قوله : { وَلَا الضَّالِّينَ } . من جنس السكتات التي عند رؤوس الآي ، ومثل هذا لا يسمى سكوتاً ، ولم يقل أحد من العلماء أنه يقرأ في مثل هذا .
وكان بعض من أدركنا من أصحابنا يقرأ عقب السكوت عند رؤوس الآي ، فإذا قال الإمام : { الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ } . قال : { الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ } . فإذا قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . وهذا لم يقله أحد من العلماء " .
قلت : وَيَرِدُ على هذا ما سبق ؛ وهو : أنه لا يجب الوقوف على رؤوس الآي ، وإن كان مستحباً ؛ لما سبق ، ولكن قد لا يفعل الإمام ذلك ؛ إما ترخصاً في بعض الأحيان ، وإما جهلاً بسنة خير الأنام ـ كما هو الغالب في أئمة هذا الزمان ـ ، حتى ولو سكت ؛ لا تتسع هذه السكتة لقراءة الآية فيها بتمامها ، فلا بد أن يقع بعضها والإمام يقرأ ؛ فلا مناص من الوقوع في مخالفة النص القرآني .
ثم قال شيخ الإسلام : " ومعلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو كان يسكت سكتةً تتسع لقراءة { الفَاتِحَة } ؛ لكان هذا مما
تتوافر الهمم والدواعي على نقله ، فلما لم ينقل هذا أحد ؛ عُلم أنه لم يكن ، وأيضاً فلو كان الصحابة كلهم يقرؤون { الفَاتِحَة } خلفه ؛ إما في السكتة الأولى ، وإما في الثانية ؛ لكان هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله ؛ فكيف ولم

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ: لَا تَتَعَيَّنُ قِرَاءَتُهَا، بَلْ لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِهَا أَجْزَأَهُ لِقَوْلِهِ: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [الْمُزَّمِّلِ: 20] ([6]) ، [كَمَا تَقَدَّمَ] وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ".(والصحيح ان قراءتها تجب في كل ركعة لحديث المسيء صلاته وامره له بقراتها وقوله ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وهذه المسئلة من مسائل الاجتهاد التي يعذر الناس فيها بالخلاف).

وهناك اسماء اخرى لسورة الفاتحة ذكرها اهل العلم في مصنفاتهم.
وقد جاءت البشارة بنزولها فقد روى مسلم والنسائي عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع فقال : [هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك ؛ فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته] وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ وَلِمُسْلِمٍ نَحْوُهُ . وهذا في المدينة وسورة الفاتحة نزلت قبل ذلك وانما المراد بذلك البشارة بها وبخواتيم سورة البقرة.

الكلام عن الإستعاذة

الإستعاذة : طلب الإعاذة والإعاذة الحماية من مكروه فالمستعيذ محتمٍ بمن استعاذ به ومعتصم به .
والاستعاذة بالله او بصفة من صفاته جائزة ومرغب فيها.
واما الاستعاذة بالمخلوق كالإستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك. ([7])

ينقل أحد عن أحد من الصحابة أنهم كانوا في السكتة الثانية يقرؤون { الفَاتِحَة } ؟! مع أن ذلك لو كان مشروعاً ؛ لكان الصحابة أحق الناس بعلمه وعمله ؛ فعُلم أنه بدعة .
وأيضاً ؛ فالمقصود بالجهر : استماع المأمومين ؛ ولهذا يؤمِّنون على قراءة الإمام في الجهر دون السر ، فإذا كانوا مشغولين عنه بالقراءة ، فقد أُمِرَ أن يقرأ على قوم لا يستمعون لقراءته ، وهو بمنزلة من يحدث من لا يستمع لحديثه ، ويخطُب من لا يستمع لخطبته !
وهذا سَفَهٌ تتنزه عنه الشريعة ؛ ولهذا رُوي في الحديث : " مثل الذي يتكلم ، والإمام يخطب ؛ كمثل الحمار يحمل أسفاراً " (*) . فهكذا إذا كان يقرأ والإمام يقرأ عليه " . ا هـ كلام شيخ الإسلام باختصار .
وإنما أمر تعالى بالاستماع بعد الأمر بالإنصات ؛ لأنه قد يقول قائل : أقرأ وأسمع . كما يفعله بعض المتزهدين في خطبة الجمعة ؛ فإنك تراهم يذكرون الله بالسبحة ، ولو سألتهم ؛ لقالوا : نحن نسمع ونقرأ ! و : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } .
فكان من الحكمة أن يُتْبعَ الأمرَ بالاستماعِ الأمرَ بالإنصات . هذا ما ظهر لي . والله أعلم ".

[6] ـ أما الإمام والمنفرد فعندهم أن قراءة مطلق قرآن فرض تبطل الصلاة بتركه ، أما قراءة الفاتحة فواجبة لا تبطل الصلاة بتركه ، فلو قرأ سورة أخرى غير القرآن صحت صلاته مع الإثم بترك الفاتحة ، ولو لم يقرأ مطلقا بطلب صلاته ، جريا على قاعدة الحنفية في التفريق بين ما ثبت بقطعي وهو الفرض ، وما ثبت بظني وهو الواجب.

[7] ـ واما ما هي أنواع الاستعاذة؟
فالاستعاذة أربعة أنواع ,
الأول: الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر قال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}[سورة الفلق], وقال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}[سورة الناس].

والذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل: 98] أي: إذا أردت القراءة .وللاحاديث الواردة في قراته صلى الله عليه وسلم في الصلاة وانها كانت قبل شروعه بالقراءة.
والجمهور ان الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها ..وقال الشافعي يجهر بالتعوذ وان اسر فلا يضر .
وقال ايضا (الأم 129/1):" وَلَا آمُرُ بِهَا فِي شَيْءٍ مِنْ الصَّلَاةِ .... وَإِنْ تَرَكَها نَاسِيًا ، أَوْ جَاهِلًا ، أَوْ عَامِدًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إعَادَةٌ وَلَا سُجُودُ سَهْوٍ ، وَأَكْرَهُ لَهُ تَرْكَها عَامِدًا ، وَأُحِبُّ إذَا تَرَكَها فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ أَنْ يَقُولَها فِي غَيْرِهَا .
وَإِنَّمَا مَنَعَنِي أَنْ آمُرَهُ أَنْ يُعِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم- عَلَّمَ رَجُلًا مَا يَكْفِيهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : [كَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ] (قَالَ) وَلَمْ يُرْوَ عَنْهُ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِتَعَوُّذٍ وَلَا افْتِتَاحٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ افْتِتَاحَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - اخْتِيَارٌ وَأَنَّ التَّعَوُّذَ مِمَّا لَا يُفْسِدُ الصَّلَاةَ إنْ تَرَكَهُ ".
ــ واختلف اهل العلم هل يستعيذ في كل ركعة ام يكتفي بالاستعاذة في الركعة الاولى على اعتبار ان القراءة في جميع الصلاة قراءة واحدة ؟
اكثر أهل العلم، على أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة، يكفي فيها الاستعاذة مرة واحدة في الركعة الأولى؛ منهم عطاء والحسن البصري والنخعي والثوري وابن سيرين وطاوس، وأبوحنيفة، والشافعي، وأحمد في رواية عنه.
وإذا نسي أن يتعوذ في الركعة الأولى، تعوذ في الركعة الثانية عند الشافعي وقال الإمام أحمد: «إن نسي التعوذ حتى شرع في القراءة لم يعد إليه لذلك.
قال ابن القيم في «زاد المعاد «بعدما ذكر الرواية عن أحمد: «الاكتفاء باستعاذة واحدة أظهر- ثم استدل بحديث أبي هريرة ثم قال: «وإنما يكفي استعاذة واحدة؛ لأنه لم يتخلل القراءتين سكوت، بل تخللهما ذكر، فهي كالقراءة الواحدة، إذا تخللها حمد الله، أو تسبيح، أو تهليل، أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك.«
وذهب بعض العلماء إلى أن المصلي يتعوذ في كل ركعة؛ لأن كل ركعة لها قراءة مستقلة، وهو مروي عن النخعي وابن سيرين وهو أحد الوجهين عند الشافعية بل صححه بعضهم.

الثاني: الاستعاذة بصفة ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم [أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)مسلم , وقوله [أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي] رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني , وقوله في دعاء الألم [أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر] متفق عليه , وقوله [أعوذ برضاك من سخطك]مسلم , وقوله صلى الله عليه وسلم حين نزل قوله تعالى {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم{[الأنعام 65] , فقال [أعوذ بوجهك]البخاري .
الثالث: الإستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك ومنه قوله تعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)الجن6 .
الرابع: الإستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز ودليله قوله صلى الله عليه وسلم في ذكر الفتن : (من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذبه)متفق عليه وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا الملجأ والمعاذ بقوله: (فمن كان له إبل فليلحق بإبله)مسلم، وفي صحيحه أيضاً عن جابر رضي الله عنه أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فعاذت بأم سلمة الحديث، وفي صحيحه أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث) , ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان ، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيواؤه.

قال النووي في »التبيان» :«ويستحب التعوذ في الصلاة كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا». وهو رواية عن الإمام أحمد .واختاره ابن حزم في المحلى.
وذهب الإمام مالك إلى أنه لا يتعوذ الرجل في المكتوبة، ولكن يتعوذ في قيام رمضان، وفي رواية في النافلة.
قال الالباني في صفة الصلاة :" (أنه لا يكفي استعاذة واحدة ؛ بل لابد من الإستعاذة في كل ركعة " .
قال الشيخ العلامة محمد حامد الفقي...في تعليقه على " المنتقى من أخبار المصطفى " (434/1) :"
والظاهر أنهما قراءتان ؛ لطول الفصل بالركوع والسجود ، وهي حركات كثيرة ؛ فلكل ركعة تعوذ .
وأيضاً : فإن كل ركعة معتبرة صلاة ؛ ولذلك أوجبوا قراءة { الفَاتِحَة } لكل ركعة ،فأولى أن تعتبر كذلك للتعوذ ، وهذا الذي رجحه ابن حزم في " المحلى " ، وهو الصواب " .
قلت (أي الالباني) : واحتج ابن حزم (247/3) بعموم قوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} ، وهو احتجاج صحيح لا شائبة فيه .
قال الحافظ في " التلخيص " (306/3) :" وعموم هذه الآية يقتضي الاستعاذة في أول كل ركعة").

ومن فوائد الاستعاذة

1-انها كالتخلية قبل التحلية فلا ينتفع بنور القران الا بعد التخلص من ظلمة الوساوس الشيطانية .
2- ومنها : أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح فقال عليه الصلاة و السلام : تلك الملائكة.
3- ومنها : أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان شيطانا تفلت على البارحة فأراد أن يقطع على صلاتي الحديث وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر لا سيما عند قراءة القرآن فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولا ثم يأخذ في السير كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره
4- ولان الانسان خلق ضعيفا وان الشيطان يرى الانسان من حيث لا يراه الانسان وهو عدو بين العداوة لا يرضى الا ان تكون من اصحاب السعير لا يغفل عنك ولا ينام .
والعدو اذا كنت تراه ربما تتقيه بشيء لكن حينما يكون العدو مخفيا وقويا فالسبيل الى ذلك ان تراجع الى الله تعالى الذي يرى الشيطان من حيث لا يراه بل هو يجري من ابن ادم مجرى الدم كما عند البخاري فالاحتراز منه عسير الا بالاعتصام بخالقك وخالق كل شيء ولان قوة الله تعالى اعظم من كل قوة فتحيل المعركة من معركة بينك وبين الشيطان الى معركة بينه وبين رب الاكوان الذي لا يغلب ابدا .
وعلى قدر يقينك بالله وبصفاته سبحانه يكون نصرك وخذلان عدوك.لان الله تعالى اخبر ان كيد الشيطان كان ضعيفا اذا اعتصم العبد بمولاه والتجأ اليه بصدق وحضور قلب .
ومعركة الشيطان مع ابن آدم من حين ولادته عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه] ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} متفق عليه.
بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ باله وان يتخبطه الشيطان عند الموت.
قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان فتبسم وَقَالَ لَوْ نام لاسترحنا .
بل هو في نوم الانسان قد يتلاعب به كما اخبر بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم وان بعض ما يراه النائم هي من الاحلام التي مصدرها الشياطين فهو لا يترك ايذاء ابن ادم لا في يقظته ولا في نومه.

5- ومنها : أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتى به بعدها القرآن ليستعد لها السامع. (ملخصا من اغاثة اللهفان).

قال ابن كثير:" وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مُسْتَحَبَّةٌ لَيْسَتْ بِمُتَحَتِّمَةٍ يَأْثَمُ تَارِكُهَا... ثُمَّ الِاسْتِعَاذَةُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا هِيَ لِلتِّلَاوَةِ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ(يعني المأموم لا يحتاج ان يستعيذ اذا كان لا يقرأ وهو الصواب) وقال أبو يوسف:بَلْ لِلصَّلَاةِ، فَعَلَى هَذَا يَتَعَوَّذُ الْمَأْمُومُ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ، وَيَتَعَوَّذُ فِي الْعِيدِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ وَقَبْلَ تَكْبِيرَاتِ الْعِيدِ، وَالْجُمْهُورُ بَعْدَهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ.

وَمِنْ لَطَائِفِ الِاسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللَّهِ وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً، وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا} [الْإِسْرَاءِ: 65] ، وَقَدْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ يَوْمَ بَدْرٍ، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمِنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيُّ كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرُ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ قَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنُ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشيطان.([8])

...والاستعاذة هِيَ الِالْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الْخَيْرِ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ "([9])

فَصْلٌ مَعْنَى الِاسْتِعَاذَةِ

قال ابن كثير :" وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يكفُّه عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ طَبْعُهُ عمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رَشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ؛ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ لَهُنَّ رَابِعَةً، قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الْأَعْرَافِ: 199] ، فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْبَشَرِ، ثُمَّ قَالَ: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الْأَعْرَافِ: 200] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ": {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [الْمُؤْمِنُونَ: 96 -98] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ " حم السَّجْدَةِ ": {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ

---

[88] - عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول بسم الله] . رواه الترمذي وقال : هذا حديث غريب وإسناده ليس بقوي وقال الالباني صحيح لغيره وقالفي تمام المنة فالحديث حسن على أقل الدرجات ، ثم اعلم أنه ليس في شئ من هذه الأحاديث أو غيرها الجهر ، فاقتضى التنبيه.

[9] -هذه الابيات قالها المتنبي في سيف الدولة الحمداني وهي لا تنبغي الا لله تعالى ذكر البيتين الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (275/11) وقال: "وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رحمه الله- أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله -سبحانه وتعالى- وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم -رحمه الله- أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع".

وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فُصِّلَتْ: 34 -36]" .

وقال ايضا :" فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طبعُهُ الطَّيِّبُ الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَادَّةِ وَالْمُصَافَاةِ، وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [الْأَعْرَافِ: 27] وَقَالَ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فَاطِرٍ: 6] وَقَالَ {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الْكَهْفِ: 50] ، وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ، وَكَذَبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 82، 83] ، وَقَالَ (6) تَعَالَى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النَّحْلِ: 98، 99][10]

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرَّاءِ وَغَيْرِهِمْ: نَتَعَوَّذُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، وَاعْتَمَدُوا عَلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَلِدَفْعِ الْإِعْجَابِ بَعْدَ فَرَاغِ الْعِبَادَةِ؛ وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ حَمْزَةُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ قُلُوقَا عَنْهُ، وَأَبُو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ، حَكَى ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ يُوسُفُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ جُبارة الْهُذَلِيُّ الْمَغْرِبِيُّ فِي كِتَابِ " الْكَامِلِ ".وَرُوِي عَنْ أبي هريرة -أيضا- وهو غريب.

[وَنَقَلَهُ فَخْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: وَهُوَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَدَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيِّ الظَّاهِرِيِّ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ عَنِ الْمَجْمُوعَةِ عَنْ مَالِكٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّ الْقَارِئَ يَتَعَوَّذُ بعد الفاتحة، واستغربه ابن العربي. وحكى قول ثالث وَهُوَ الِاسْتِعَاذَةُ أَوَّلًا وَآخِرًا جَمْعًا بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ نَقَلَهُ فَخْرُ الدِّينِ].

وَالْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لِدَفْعِ الْوَسْوَاسِ فِيهَا، إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النَّحْلِ: 98] أَيْ: إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ كَقَوْلِهِ: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} الْآيَةَ [الْمَائِدَةِ: 6] أَيْ: إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ. ".([11])

---

[10] ـ قال الرازي :" اعلم أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل أما العلم فهو كون العبد عالما بكونه عاجزا عن جلب المنافع الدينية والدنيوية وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب وهي انكسار وتواضع ويعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له ثم إن حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أخرى في القلب وصفة في اللسان أما الصفة الحاصلة في القلب فهي أن يصير العبد مريدا لأن يصونه تعالى عن الآفات ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات وأما الصفة التي في اللسان فهي أن يصير العبد طالبا لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى وذلك الطلب هو الاستعاذة وهو قوله (أعوذ بالله) إذا عرفت ما ذكرنا يظهر لك أن الركن الأعظم في الاستعاذة هو علمه بالله وعلمه بنفسه وأما علمه بالله فهو أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فإنه لو لم يكن الأمر كذلك لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثا ولا بد أن يعلم كونه قادرا على جميع الممكنات وإلا فربما كان عاجزا عن تحصيل مراد البعد ولا بد أن يعلم أيضا كونه جوادا مطلقا إذ لو كان البخل عليه جائزا لما كان في الاستعاذة فائدة ولا بد أيضا وأن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله ".

[11] ـقال ابن العربي : انْتَهَى الْعِيُّ بِقَوْمٍ إلَى أَنْ قَالُوا : إنَّ الْقَارِئَ إذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ حِينَئِذٍ يَسْتَعِيذُ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ....

وَمِنْ أَغْرَبِ مَا وَجَدْنَاهُ قَوْلُ مَالِكٍ فِي الْمَجْمُوعَةِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } الْآيَةَ قَالَ : ذَلِكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ أُمِّ الْقُرْآنِ لِمَنْ قَرَأَ فِي الصَّلَاةِ , وَهَذَا قَوْلٌ لَمْ يَرِدْ بِهِ أَثَرٌ , وَلَا يُعَضِّدُهُ نَظَرٌ ..... وَلَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ إنَّ

معنى الشيطان الرجيم

قال ابن كثير :"والشيطان فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنٍ إذا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلّ خَيْرٍ، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كِلَاهُمَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَصَحُّ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ كَلَامُ الْعَرَبِ.

.. وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: الْعَرَبُ تَقُولُ: تَشَيْطَنَ فُلَانٌ إذَا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ[12] .. . وَالشَّيْطَانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبُعْدِ عَلَى الصَّحِيحِ؛ وَلِهَذَا يُسَمُّونَ كُلَّ مَا تَمَرَّدَ مِنْ جِنِّيٍّ وَإِنْسِيٍّ وَحَيَوَانٍ شَيْطَانًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الْأَنْعَامِ: 112] . (أي نهم جعلوا تسمية الشيطان من البعيد والثاني المتمرد وربما جعلوها بمعنى واحد ورما جعلوه من الاحتراق فقالوا مُشْتَقّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوق مِنْ نَار . وَقَالَ سِيبَوَيْهِ الْعَرَب : تَقُول تَشَيْطَنَ فُلَان إذَا فَعَلَ فِعْل الشَّيَاطِين وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطَ لَقَالُوا تَشَيَّطَ .

فَالشَّيْطَان مُشْتَقّ مِنْ الْبُعْد عَلَى الصَّحِيح وَلِهَذَا يُسَمُّونَ كُلّ مَنْ تَمَرَّدَ مِنْ جِنّيّ وَإِنْسِيّ وَحَيَوَان شَيْطَانًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول أن الكل صَحِيح فِي الْمَعْنَى .)

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ "، فقلت: أو للإنس شَيَاطِينُ؟ قَالَ: " نَعَمْ " .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ -أَيْضًا-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ ". فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ فَقَالَ: " الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ " .

الِاسْتِعَاذَةَ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ لَكَانَ تَخْصِيصُ ذَلِكَ بِقِرَاءَةِ أُمِّ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ دَعْوَى عَرِيضَةً لَا تُشْبِهُ أُصُولَ مَالِكٍ , وَلَا فَهْمَهُ , وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِسِرِّ هَذِهِ الرِّوَايَةِ .

وقَالَ الجصاص: قَوْلُهُ : { فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ } يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ أَنْ تَكُونَ الِاسْتِعَاذَةُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ , كَقَوْلِهِ : { فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا }اهـ .

لِأَنَّ الْفَاءَ لِلتَّعْقِيبِ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْفَاءَ ... لِلْحَالِ كَمَا يُقَالُ : إذَا دَخَلْتَ عَلَى السُّلْطَانِ فَتَأَهَّبْ . أَيْ : إذَا أَرَدْتَ الدُّخُولَ عَلَيْهِ فَتَأَهَّبْ .

وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِإِطْلَاقِ مِثْلِهِ ، وَالْمُرَادُ إذَا أَرَدْت ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا } .

وَقَوْلِهِ : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَسْأَلَهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ بَعْدَ سُؤَالٍ مُتَقَدِّمٍ .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً } .

كَمَا قَالَ : { إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ } مَعْنَاهُ , إذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إلَى الصَّلَاةِ , وَكَقَوْلِهِ : إذَا أَكَلْت فَسَمِّ اللَّهَ ; مَعْنَاهُ : إذَا أَرَدْت الْأَكْلَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ { فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ } مَعْنَاهُ : إذَا قَرَأْت فَقَدِّمْ الِاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ , وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُ : إذَا أَرَدْت الْقِرَاءَةَ فَاسْتَعِذْ .

وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ : إذَا قُلْت فَاصْدُقْ وَإِذَا أَحْرَمْت فَاغْتَسِلْ يَعْنِي قَبْلَ الْإِحْرَامِ , وَالْمَعْنَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ إذَا أَرَدْت ذَلِكَ كَذَلِكَ .

قَوْلُهُ : { فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ } مَعْنَاهُ : إذَا أَرَدْت قِرَاءَتَهُ .

---

[12] قال الازهري في الصحاح :" والشَيْطانُ معروف. وكلُّ عاتٍ من الإنس والجنّ والدوابّ شَيْطان. قال جرير:

أيامَ يدعُونني الشَيْطانَ من غَزَلٍ ... وهُنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كنتُ شَيْطانا

والعرب تسمّي الحيّةَ شَيْطاناً."

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَكِبَ برْذونًا[13]، فَجَعَلَ يتبخْتر به، فجعل لا يَضْرِبُهُ فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا تَبَخْتُرًا، فَنَزَلَ عَنْهُ، وَقَالَ: مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ، مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَنْكَرْتُ نَفْسِي. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ[14].

والرّجيم: فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَيْ: أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الْمُلْكِ: 5] ، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصَّافَّاتِ: 6 -10] ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الْحِجْرِ: 16 -18] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

[وَقِيلَ: رَجِيمٌ بِمَعْنَى رَاجِمٍ؛ لِأَنَّهُ يَرْجُمُ النَّاسَ بِالْوَسَاوِسِ وَالرَّبَائِثِ[15] وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ] ".ولو قيل انه يحمل على المعنيين فليس ببعيد والقاعدة ان اللفظ القرآني لو احتمل اكثر من معنى من غير ممانعة ان يحمل على احداها فانه يُحملُ على المعنيين.

وقال ابن جرير :" أما الرجيم فهو: فَعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كفٌّ خضيبٌ، ولحيةٌ دهين، ورجل لَعينٌ، يريد بذلك: مخضوبة ومدهونة وملعون. وتأويل الرجيم: الملعون المشتوم. وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبّ فهو مَرْجُوم. وأصل الرجم الرَّميُ، بقول كان أو بفعل. ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ } [سورة مريم: 46].

وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان رجيمٌ، لأن الله جل ثناؤه طرَده من سَمواته، ورجمه بالشُّهب الثَّواقِب". فالرجيم هنا له ثلاث معان من الرمي ومن الطرد ومن اللعن والشتم

كيفية الاستعاذة

1-اما ان يقول :(أعوذ بالله السميع العليم[16] من الشيطان الرجيم : من همزه ونفخه ونفثه)كما في حديث أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته

---

[13] ـ لغة في البغل، وهو متولد من الخيل ومن الحمار, أمه حمارة وأبوه حصان.

[14] ـ وفي قولك اعوذ بالله من الشيطان هل المراد باللام العهدية فيكون المقصود به الشيطان الاجني او الاستغراق فتتعوذ من كل شيطان انسي او جني.

قال ابن جرير :" والشيطان، في كلام العرب: كل متمرّد من الجن والإنس والدوابّ وكل شيء ، وإنما سُمي المتمرّد من كل شيء شيطانًا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائر جنسه وأفعاله، وبُعدِه من الخير .".

[15] ـ وتعني في اللغة الموانع، العوائق، أو الأمور التي تحبس الإنسان وتصرفه عن حاجته أو مقصده)خديعة وحبساً). تُستخدم غالباً للدلالة على المشاغل الدنيوية التي تثبط الإنسان عن أعمال الخير، ومصدرها الفعل "رَبَثَ" بمعنى حَبَسَ.

قال ابن منظور :" الرَّبْثُ : حَبْسُكَ الإِنسانَ عن حاجته وأَمره بعِلَلٍ . رَبَثَه عن أَمره وحاجته يَرْبُثه بالضم رَبْثاً و رَبَّثه : حَبَسَه وصَرَفَه . و الرَّبيثةُ : الأَمرُ يَحْبِسُك وكذلك الرِّبِّيثي مثال الخِصِّيصَى . وفَعل ذلك له رِبِّيثي و رَبيثةً أَي خَديعةً وحَبْساً . وقال ابن السكيت : إِنما قلتُ ذلكَ رَبيثة مني أَي خديعة . وقد رَبَثْتُه أَرْبُثُه رَبْثاً . الكسائي : الرِّبِّيثَى من قولك رَبَّثْتُ الرجلَ أَرْبُثُه رَبْثاً وهو أَن تُثَبِّطَه وتُبْطِىء به قال الشاعر : بَيْنا تَرى المَرْءَ في بُلَهْنِيةٍ يَرْبُثُه من حِذَارِه أَمَلُهْ قال شمر : رَبَثَهَ عن حاجته أَي حَبَسه فَرَبِثَ وهو رَابِثٌ إِذا أَبْطَأَ وأَنشد لنُمير بن جَرَّاح : تقولُ ابنةُ البَكْرِيّ : ما ليَ لا أَرى صَديقَك إِلاَّ رابِثاً عنكَ وافِدُه أَي بَطيئاً . ويقال : دنا فلان ثم ارْباثَّ أَي احتبَسَ و ارْبأْثَثْتُ . وفي الحديث : تَعْترضُ الشياطينُ الناسَ يوم الجمعة بالرَّبائثِ أَي بما يُرَبِّثُهم عن الصلاة . وفي رواية : إِذا كان يوم الجمعة بَعَثَ إِبليسُ شياطينَه وفي رواية : جُنودَه إِلى الناس فأَخَذوا عليهم بالرَّبائثِ . وفي حديث عليّ : غَدَتِ الشياطينِ برايَاتها فيأْخُذونَ الناسَ بالرَّبائثِ أَي ذَكَّروهم الحوائجَ التي تُرَبِّثُهُم ليُرَبِّثوهم بها عن الجمعة ".

[16] ـ قال الرازي :" وأما قوله {إنه هو السميع العليم }[الأنفال 61] ففيه وجهان:-

الأول:- أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة كأنها حروف خفية في قلب الإنسان ولا يطلع عليها أحد فكأن العبد يقول يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع ويعلم كل سر خفي أنت تسمع

وكبر قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ثم يقول: لا إله إلا الله ثلاثاً، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه).وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن علي وهو: الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر شيء في هذا الباب،(وصححه الالباني)). وهو يدل على ان الإستعاذة تكون قبل القراءة كما تقدم. ([17]) و(همزه) يعني الموتة، وهو صرع الشيطان للإنسان، وأن يتسلط على ذهنه وعقله، بحيث يصبح في عقله مس، فيصبح كالذي يتخبطه الشيطان من المس.

وأما (نفخه) فالكبر، أي: يزين للإنسان أن يتكبر وأن يتعاظم وأن يتعالى على عباد الله جل وعلا. وعلام يتكبر الإنسان وهو يعلم ممَ خلق وإلى أي شيء يصير؟ وما يعلم هل سيدخل الجنة أو النار؟ والكبر لا يليق إلا بالعزيز الجبار، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة، وهنا: ونفخه. إذاً: (ومن نفخه) نفخهُ: الكبر، أي: أن يزين للإنسان الكبر.
وأما (نفثه) فالشعر(أي المذموم)، والشعر هو الكلام الموزون المقفى الذي يشتمل على منكرات، يدخل في ذلك دخولاً أولياً الغناء وقلة الحياء، ولذلك قرآن الشيطان الشعر والغناء، كما أن قرآن الرحمن القرآن الذي أنزله على نبينا عليه الصلاة والسلام، فذاك قرآن الشيطان، وهذا قرآن الرحمن، ولذلك لا يجتمعان في قلب إنسان، إما غناء وقلة حياء، وإما كلام الله جل وعلا، وحياء يتصف به الإنسان في هذه الحياة.
2- او ان يقول ، « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من همزه ، ونفخه ، ونفثه »كما في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل في الصلاة قال: (الله أكبر كبيراً ثلاثاً، الحمد لله كثيراً ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه)].رواه الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن، ابن ماجه في سننه أيضاً، والحديث رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه، وأبو داود الطيالسي في مسنده، والإمام ابن الجارود في كتابه المنتقى، ورواه أيضاً الإمام ابن أبي شيبة في المصنف، وإسناد الحديث حسن صحيح كما أن الحديث الأول حديث أبي سعيد الخدري أيضاً صحيح.(كذا قال الطحان).
3- صيغة أخرى كان نبينا عليه الصلاة والسلام أيضاً يذكرها قبل قراءة القرآن، رواها الإمام أحمد في المسند أيضاً والإمام ابن ماجه في السنن، وابن خزيمة في صحيحه (240/1)، وأيضاً الحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن الكبرى، وبوب عليها الإمام ابن خزيمة في صحيحه باباً فقال: (باب: الاستعاذة في الصلاة قبل القراءة) ورواية الحديث هنا من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، قال) :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة يقول: [اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه].
4- في سنن الإمام الدارقطني(299/1)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، قال) :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر للصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، وإذا تعوذ قال: أعوذ بالله من همز الشيطان ونفخه ونفثه .

وسوسة الشيطان وتعلم غرضه فيها وأنت القادر على دفعها عني فادفعها عني بفضلك فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار .
الثاني :- أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضع اقتداء بلفظ القرآن وهو قوله تعالى {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم}[الاعراف 200]وقال { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم }[فصلت 36]".
[17] - قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النحل:98) قال الشوكاني : لَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الِاسْتِعَاذَةِ قَبْلَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَهِيَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْقَارِئُ خَارِجَ الصَّلَاةِ أَوْ دَاخِلَهَا .

قال الإمام الدارقطني : المحفوظ عن عمر من قوله وهو الصواب.
وإن كان الحديث موقوفاً على عمر رضي الله عنه -وهو من كلامه كما رجح ذلك الإمام الدارقطني - فهذا يدل أيضاً على أن الأمر فيه سعة، وأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يقولون هذه الصيغ المتنوعة التي يشملها قول الله ﴿ :فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[النحل:98].
5-ان يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم واختاره الشافعي وأبو حنيفة هو رواية عن أحمد لظاهر الآية
.. وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم لقوله في الآية الأخرى : {فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم }[فصلت : 36]
قال الشافعي :"وَأَيُّ كَلَامٍ اسْتَعَاذَ بِهِ أَجْزَأَهُ" اهـ .
وقال ابن قدامه : وَهَذَا كُلُّهُ وَاسِعٌ , وَكَيْفَمَا اسْتَعَاذَ فَهُوَ حَسَنٌ اهـ .

الفوائد والعبر من الإستعاذة

1- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان .([18]).
2- الرد على مذهب الجبرية والقدرية ، فلو كان الإنسان مجبورا ما أمر بالاستعاذة ، ولو كان هو الذي يخلق أفعاله لأعاذ نفسه بدون مستعيذ ، لكن الإنسان له إرادة ومشيئة لا تنفذ إلا بإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى .
3- وجود والشياطين وأن لهم حقيقة ، فلولا أن للشياطين حقيقة ما أمر الله بالاستعاذة منهم .
4- تسلط الجن على الإنس ، وأنهم ممكنون من ذلك ولكن { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ }(البقرة: 102)
5- توثيق الصلة بالله : فالذين يتوجهون إلى الله وحده ويخلصون قلوبهم لله لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه وينقادوا إليه وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب .
6- حاجتنا التامة إلى الله ، فلولا الاحتياج اليه لما كان في الاستعاذة فائدة .
7- الإقرار بالفقر التام للعبد ، والغنى التام لله سبحانه وتعالى ، والإقرار بقدرة الحق سبحانه وتعالى على جلب النفع وتحصيل الخير ودفع الضر ، فقولك: (بالله) إقرار بأن الحق قادر على تحصيل كل الخيرات ودفع كل الآفات.
8- أن أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن، والصلاة ، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته من المحرمات ، ومن خشع في صلاته فقد أفلح في الدنيا والآخرة ، فلهذا السبب صارت قراءة القرآن ، والصلاة من أعظم الطاعات، فلا جرم كان سعى الشيطان في الصد عنهما أبلغ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد .
9- أدخل الألف واللام في الشيطان ليكون تعريفاً للجنس؛ لأن الشياطين كثيرة مرئية وغير مرئية، بل المرئي ربما كان أشد.

---

[18] -فالإستعاذة سبب من اسباب طرد الشيطان عن الانسان ففي البخاري قال سليمان بن صرد رضي الله عنه: [استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني لست بمجنون].
وذلك اما لشدة غضبه وانه لم يعد يسيطر على نفسه او ربما ان الرجل كان المنافقين والله اعلم بالحال.

10- الشيطان مأخوذ من «شطن» إذا بعد فحكم عليه بكونه بعيداً، وأما المطيع فقريب قال الله تعالى:{ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب }[العلق: 19] والله قريب منك قال الله تعالى:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } [البقرة: 186] وأما الرجيم فهو المرجوم بمعنى كونه مرمياً بسهم اللعن والشقاوة .

تفسير { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }

اختلف فيها هل هي آية مستقلَّة أو لا ؟ على اقوال :

الاول:- إنها ليست من القرآن إلا في سورة { النَّمْلِ } ؛ كما قال مالك .يعني انها مثل الاستعاذة.

قال ابن كثير :" وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُمَا: لَيْسَتْ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلٍ، فِي بَعْضِ طُرُقِ مَذْهَبِهِ: هِيَ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَيْسَتْ مِنْ غَيْرِهَا([19])، وَعَنْهُ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، وَهُمَا غَرِيبَانِ".

الثاني : قول من يقول : إنها آية من كل سورة([20]) ، أو بعض آية ؛ كما هو المشهور عن الشافعي ، ومن وافقه .

قال ابن كثير :" وَمِمَّنْ حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا بَرَاءَةٌ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَعَلِيٌّ. وَمِنَ التَّابِعِينَ: عَطَاءٌ، وَطَاوُسٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَكْحُولٌ، وَالزُّهْرِيُّ، وَبِهِ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيه، وَأَبُو عُبَيْدٍ القاسم بن سلام، رحمهم الله ".

الثالث :-وهو القول الوسط ؛ أنها من القرآن حيث كتبت ، وأنها مع ذلك ليست من السور ؛ بل كتبت آية في كل سورة ، وكذلك تتلى آية مفردة في أول كل سورة ..كما روى مسلم من حديث المختار بن فُلْفُل عن أنس :أنه عليه الصلاة والسلام أغفا إغفاءة ، ثم استيقظ ، فقال :" نزلت عليَّ سورة آنفاً ثم قرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ... } إلى آخرها .وهذا قول ابن/لمبارك ، وداود ، وأتباعه ، وهو المنصوص عن أحمد بن حنبل .

وهذا قول المحققين من أهل العلم ؛ فإن في هذا القول الجمعَ بين الأدلة ، وكتابتها سطراً مفصولاً عن السورة يؤيد ذلك ، وعن ابن عباس :كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعرف فصل السورة حتى ينزل

---

[19] ـ قال الطاهر بن عاشور :" وَأَمَّا حُجَّةُ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ بِأَنَّهَا آيَةٌ مِنْ سُورَة الْفَاتِحَة خَاصَّة فَأُمُورٌ كَثِيرَةٌ أَنْهَاهَا فَخْرُ الدِّينِ إِلَى سَبْعَ عَشْرَةَ حُجَّةً لَا يَكَادُ يَسْتَقِيمُ مِنْهَا بَعْدَ طَرْحِ الْمُتَدَاخِلِ وَالْخَارِجِ عَنْ مَحَلِّ النِّزَاعِ وَضَعِيفِ السَّنَدِ أَوْ وَاهِيهِ إِلَّا أَمْرَانِ: أحد هما أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا مَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيءَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ سَبْعُ آيَاتٍ أُولَاهُنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَوْلُ أُمِّ سَلَمَةَ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَاتِحَةَ وَعَدَّ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ آيَةً.

الثَّانِي: الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ مَا بَيْنَ الدِّفَّتَيْنِ كَلَامُ اللَّهِ.

وَالْجَوَابُ: أَمَّا عَنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فَهُوَ لَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ الصَّحِيحِ إِنَّمَا خَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فَهُوَ نَازِلٌ عَنْ دَرَجَةِ الصَّحِيحِ فَلَا يُعَارِضُ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، وَأَمَّا حَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ فَلَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ رِجَالِ الصَّحِيحِ غَيْرُ أَبِي دَاوُدَ وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْبَيْهَقِيّ، وصحيح بَعْضَ طُرُقِهِ وَقَدْ طَعَنَ فِيهِ الطَّحَاوِيُّ بِأَنَّهُ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، وَلَمْ يَثْبُتْ سَمَاعُ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، يَعْنِي أَنَّهُ مَقْطُوعٌ، عَلَى أَنَّهُ رَوَى عَنْهَا مَا يُخَالِفُهُ".

[20] ـ قال الطاهر بن عاشور :" وَأَنَا أَرَى فِي الِاسْتِدْلَالِ بِمَسْلَكِ الذَّوْقِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُرَاعَاةِ قَوْلِ الْقَائِلِينَ بِكَوْنِ الْبَسْمَلَةِ آيَةً مِنْ كُلِّ سُورَةٍ فَيَنْشَأُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنْ تَكُونَ فَوَاتِحُ سُوَرِ الْقُرْآنِ كُلُّهَا مُتَمَاثِلَةً وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْمَدُ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ إِذِ الشَّأْنُ أَنْ يَقَعَ التَّفَنُّنُ فِي الْفَوَاتِحِ، بَلْ قَدْ عَدَّ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ أَهَمَّ مَوَاضِعِ التَّأَنُّقِ فَاتِحَةَ الْكَلَامِ وَخَاتِمَتِهِ، وَذَكَرُوا أَنَّ فَوَاتِحَ السُّوَرِ وَخَوَاتِمَهَا وَارِدَةٌ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِ الْبَيَانِ وَأَكْمَلِهَا فَكَيْفَ يَسُوغُ أَنْ يُدَّعَى أَنَّ فَوَاتِحَ سُوَرِهِ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، مَعَ أَنَّ عَامَّةَ الْبُلَغَاءِ مِنَ الْخُطَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ يَتَنَافَسُونَ فِي تَفَنُّنِ فَوَاتِحِ مُنْشَآتِهِمْ وَيَعِيبُونَ مَنْ يَلْتَزِمُ فِي كَلَامِهِ طَرِيقَةً وَاحِدَةً فَمَا ظَنُّك بِأبلغ كَلَام ".

عليه : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } . وفي رواية : لا يعرف انقضاء السورة. (ملخصا من صفة الصلاة للألباني) والحديث رواه الحاكم وصححه ووافقه ابن الملقن في البدر المنير.
(ومما يؤيد كونها آية مستقلة الاجماع على ان سورة الكوثر ثلاث آيات وليس منها البسملة[21]) وكذلك سورة الاخلاص بالاجماع اربع آيات ليس منها البسملة ايضا وكذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك . رواه أبو داود والترمذي وحسنه واللفظ له والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد وحسنه الالباني وسورة تبارك ثلاثون آية من غير البسملة وكون النبي صلى الله عليه وسلم قرأها في بعض المرات مع السور لا يلزم انه قرأها على انها آية من السورة).
(وهناك قول آخر ان البسملة آية من الفاتحة وليست آية من كل سورة وهي قراءة نافع وينسب القول للشافعي والقاسم بن سلام وابي ثور وغيرهم).[22])
قال ابن كثير :" وَقَالَ دَاوُدُ: هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ لَا مِنْهَا، وَهَذِهِ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ. وَحَكَاهُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْكَرْخِيِّ، وَهُمَا مِنْ أَكَابِرِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ". ورجَّح ابنُ تيمية مُستندًا إلى فعلِ الصّحابة القولَ بأن البسملة آية من كتاب الله حيث كُتبَت في المصاحف، وليست من السور، وذكر أنّ هذا القول هو أوسط الأقوال، وقال» :وبه تجتمع الأدلة، فإن كتابة الصحابة لها في المصاحف دليلٌ على أنها من كتاب الله، وكونهم فصلوها عن السورة التي بعدها دليلٌ على أنها ليست منها.«

---

[21] ـ قال الطاهر بن عاشور :" الْبَسْمَلَةُ اسْمٌ لِكَلِمَةِ بَاسِمِ اللَّهِ، صِيغَ هَذَا الِاسْمُ عَلَى مَادَّةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ حُرُوفِ الْكَلِمَتَيْنِ بَاسْمِ وَاللهِ عَلَى طَرِيقَةٍ تُسَمَّى النَّحْتُ، وَهُوَ صَوْغُ فِعْلٍ مُضِيٍّ عَلَى زِنَةِ فَعْلَلَ مُؤَلَّفَةٍ مَادَّتُهُ مِنْ حُرُوفِ جُمْلَةٍ أَوْ حُرُوفِ مُرَكَّبٍ إِضَافِيٍّ، مِمَّا يَنْطِقُ بِهِ النَّاسُ اخْتِصَارًا عَنْ ذِكْرِ الْجُمْلَةِ كُلِّهَا لِقَصْدِ التَّخْفِيفِ لِكَثْرَةِ دَوَرَانِ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ النَّحْتَ فِي النَّسَبِ إِلَى الْجُمْلَةِ أَوِ الْمُرَكَّبِ إِذَا كَانَ فِي النَّسَبِ إِلَى صَدْرِ ذَلِكَ أَوْ إِلَى عَجُزِهِ الْتِبَاسٌ، كَمَا قَالُوا فِي النِّسْبَةِ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ عَبْشَمِيٌّ خَشْيَةَ الِالْتِبَاسِ بِالنَّسَبِ إِلَى عَبْدٍ أَوْ إِلَى شَمْسٍ، وَفِي النِّسْبَةِ إِلَى عَبْدِ الدَّارِ عَبْدَرِيٌّ كَذَلِكَ وَإِلَى حضر موت حَضْرَمِيٌّ قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي بَابِ الْإِضَافَةِ (أَيِ النَّسَبِ) إِلَى الْمُضَافِ مِنَ الْأَسْمَاءِ: «وَقَدْ يَجْعَلُونَ لِلنَّسَبِ فِي الْإِضَافَةِ اسْمًا بِمَنْزِلَةِ جَعْفَرِيٍّ وَيَجْعَلُونَ فِيهِ مِنْ حُرُوفِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَلَا يُخْرِجُونَهُ مِنْ حُرُوفِهِمَا لِيُعْرَفَ» اهـ، فَجَاءَ مَنْ خَلْفَهُمْ مِنْ مُوَلَّدِي الْعَرَبِ وَاسْتَعْمَلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي حِكَايَةِ الْجُمَلِ الَّتِي يَكْثُرُ دَوَرَانُهَا فِي الْأَلْسِنَةِ لِقَصْدِ الِاخْتِصَارِ، وَذَلِكَ مِنْ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فَصَارَتِ الطَّرِيقَةُ عَرَبِيَّةً. قَالَ الرَّاعِي:
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لمّا يمنعوا ... مَا عونهم وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا
أَيْ لَمْ يَتْرُكُوا قَوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:
لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لَقِيتُهَا ... أَلَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبَسْمِلُ
أَيْ قَالَتْ بِسْمِ اللَّهِ فَرَقًا مِنْهُ، فَأَصْلُ بَسْمَلَ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ ثُمَّ أَطْلَقَهُ الْمُوَلَّدُونَ عَلَى قَوْلِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اكْتِفَاءً وَاعْتِمَادًا عَلَى الشُّهْرَةِ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَنْحُوتُ خَلِيًّا مِنَ الْحَاءِ وَالرَّاءِ اللَّذَيْنِ هُمَا من حُرُوف الرحمان الرَّحِيم، فَشَاعَ قَوْلُهُمْ بَسْمَلَ فِي مَعْنَى قَالَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَاشْتُقَّ مِنْ فَعْلِ بَسْمَلَ مَصْدَرٌ هُوَ الْبَسْمَلَةُ كَمَا اشْتُقَّ مِنْ هَلَّلَ مَصْدَرٌ هُوَ الْهَيْلَلَةُ وَهُوَ مَصْدَرٌ قِيَاسِيٌّ لِفَعْلَلَ.".
[22] ـقال شيخ الاسلام في الفتاوى (352/22):" وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَكَانَ الْجَهْرُ بِبَعْضِ الْفَاتِحَةِ دُونَ بَعْضٍ بَعِيدًا عَنِ الْأُصُولِ فَإِذَا جُعِلَتْ مِنْهَا مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ اتَّفَقَتِ الْأَدِلَّةُ وَالْأُصُولُ وَأُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ صِفَةً وَلَمْ يَقُلْ إنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ وَلَوْ كَقَوْلِ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنَ الْقُرْآنِ فِي حَالٍ إلَّا فِي سُورَةِ النَّمْلِ . وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ إنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ فِي قِرَاءَةٍ دُونَ قِرَاءَةٍ لِتَوَاتُرِ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ فَيُقَالُ : الْمُتَوَاتِرُ هُوَ الْأَمْرُ الْوُجُودِيُّ وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَبَلَّغُوهُ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنُ فِي زَمَانِهِ لَمْ يُكْتَبْ وَلَا كَانَ تَرْتِيبُ السُّوَرِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَمْرًا وَاجِبًا مَأْمُورًا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَلْ الْأَمْرُ مُفَوَّضٌ فِي ذَلِكَ إلَى اخْتِيَارِ الْمُسْلِمِينَ . وَلِهَذَا كَانَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ لِكُلِّ مِنْهُمْ اصْطِلَاحٌ فِي تَرْتِيبِ سُوَرِهِ غَيْرُ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْأَمْرَيْنِ وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ بِهَا أَفْضَلُ . وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ يُجَوِّزُونَ هَذَا . وَيُرَجِّحُونَ قِرَاءَتَهَا وَيُخْفُونَهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِغَيْرِهَا . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . ".

وذكر ابنُ تيمية في مسألة الفصل بين السورتين بالبسملة، أو عدم الفصل؛ جوازَ الأمرين. وبَيَّنَ أن القراء منهم مَن لم يَفْصِل بالبسملة؛ لكون القرآن كله كلام الله، ومنهم من فصَل بالبسملة، ومردُّ ذلك إلى إقراء النبي ﷺ تارةً بالفصل، وتارة بدونه. ورجَّح الفصلَ بالبسملة اتِّباعًا لخط المصحف، مُستندًا إلى فعلِ الصّحابة، ثم ذكر أن ترجيح أحد الوجهين لا يلزم منه كون الوجه الثاني منهيًّا عن قراءته، وأنه ليس من القرآن، بل هذا يدل على جواز الوجهين، كالحروف التي ثبتت في قراءة دون قراءة.(موسوعة التفسير بالمأثور).

قال ابن الجزري :"والذي نعتقده أن كليهما (يعني القول بثبوتها آية من الفاتحة والقول بعدمه) صحيحٌ , وأنَّ ذلك حقٌّ فيكون الاختلاف فيها كالاختلاف في القراءات ".

وفي بعض القراءات توصل السورة بالسورة بغير بسملة على ان البسملة في هذه القراءة سنة كحال الإستعاذة .

ويلزم من القول بانها آية من الفاتحة ابطال صلاة من لم يقرأ بها في صلاته.([23])

---

[23] ـقال الطاهر بن عاشور :" رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: «مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ وَإِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي فَجَعَلْتُمُوهُمَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سطرا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، قَالَ عُثْمَانُ كَانَ النَّبِيءُ لَمَّا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ بِالسُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، أَوْ تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَتَانِ فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَانَتِ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَّلِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا فَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ هُنَاكَ وَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

وَأَرَى فِي هَذَا دَلَالَةً بَيِّنَةً عَلَى أَنَّ الْبَسْمَلَةَ لَمْ تُكْتَبْ بَيْنَ السُّوَرِ غَيْرَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةَ إِلَّا حِينَ جُمِعَ الْقُرْآنُ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ زَمَنَ عُثْمَانَ، وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَكْتُوبَةً فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فِي الصُّحُفِ الَّتِي جَمَعَهَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ إِذْ كَانَتْ لِكُلِّ سُورَةٍ صَحِيفَةٌ مُفْرَدَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ.

وَعَلَى أَنَّ الْبَسْمَلَةَ مُخْتَلَفٌ فِي كَوْنِهَا آيَةً مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ غَيْرِ بَرَاءَةَ، أَوْ آيَةً مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فَقَطْ، أَوْ لَيْسَتْ بِآيَةٍ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ مِنَ السُّوَرِ فَإِنَّ الْقُرَّاءَ اتَّفَقُوا عَلَى قِرَاءَةِ الْبَسْمَلَةِ عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي قِرَاءَةِ سُورَةٍ مِنْ أَوَّلِهَا غَيْرِ بَرَاءَةَ.

وَرَوَوْا ذَلِكَ عَمَّنْ تَلَقَّوْا، فَأَمَّا الَّذِينَ مِنْهُمْ يَرْوُونَ اجْتِهَادًا أَوْ تَقْلِيدًا أَنَّ الْبَسْمَلَةَ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ غَيْرِ بَرَاءَةَ، فَأَمْرُهُمْ ظَاهِرٌ، وَقِرَاءَةُ الْبَسْمَلَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ وَاجِبَةٌ عِنْدَهُمْ لَا مَحَالَةَ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَرْوُونَ الْبَسْمَلَةَ آيَةً مِنْ أَوَائِلِ السُّوَرِ كُلِّهَا أَوْ مَا عَدَا الْفَاتِحَةَ فَإِنَّ قِرَاءَتَهُمُ الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي قِرَاءَةِ سُورَةٍ غَيْرِ مَسْبُوقَةٍ بِقِرَاءَةِ سُورَةٍ قَبْلَهَا تَعَلَّلَ بِالتَّيَمُّنِ بِاقْتِفَاءِ أَثَرِ كُتَّابِ الْمُصْحَفِ، أَيْ قَصْدَ التَّشَبُّهِ فِي مُجَرَّدِ ابْتِدَاءِ فِعْلٍ تَشْبِيهًا لِابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ بِابْتِدَاءِ الْكِتَابَةِ. فَتَكُونُ قِرَاءَتُهُمُ الْبَسْمَلَةَ أَمْرًا مُسْتَحَبًّا لِلتَّأَسِّي فِي الْقِرَاءَةِ بِمَا فَعَلَهُ الصَّحَابَةُ الْكَاتِبُونَ لِلْمُصْحَفِ، فَقِرَاءَةُ الْبَسْمَلَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ نَظِيرُ النُّطْقِ بِالِاسْتِعَاذَةِ وَنَظِيرُ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ بَيْنَ بَعْضِ السُّوَرِ مِنْ آخِرِ الْمُفَصَّلِ، وَلَا يُبَسْمِلُونَ فِي قِرَاءَةِ الصَّلَاةِ الْفَرِيضَةِ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا قرأوا فِي صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ تَجْرِي قِرَاءَتُهُمْ عَلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ فَهْمُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْبَسْمَلَةِ مِنِ اجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ. وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ قِرَاءَتِهِمْ قَوْلٌ لَهُمْ بِأَنَّ الْبَسْمَلَةَ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» وَالْبَيْضَاوِيُّ.

وَاخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ الْبَسْمَلَةِ فِي غَيْرِ الشُّرُوعِ فِي قِرَاءَةِ سُورَةٍ مِنْ أَوَّلِهَا، أَيْ فِي قِرَاءَةِ الْبَسْمَلَةِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ.

فَوَرْشٌ عَنْ نَافِعٍ فِي أَشْهَرِ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةُ، وَيَعْقُوبُ، وَخَلَفٌ، لَا يُبَسْمِلُونَ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ وَذَلِكَ يُعَلَّلُ بِأَنَّ التَّشَبُّهَ بِفِعْلِ كُتَّابِ الْمُصْحَفِ خَاصٌّ بِالِابْتِدَاءِ، وَبِحَمْلِهِمْ رَسْمَ الْبَسْمَلَةِ فِي الْمُصْحَفِ عَلَى أَنَّهُ عَلَامَةٌ عَلَى ابْتِدَاءِ السُّورَةِ لَا عَلَى الْفَصْلِ، إِذْ لَوْ كَانَتِ الْبَسْمَلَةُ عَلَامَةً عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَ السُّورَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا لَمَا كُتِبَتْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، فَكَانَ صَنِيعُهُمْ وَجِيهًا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ مَا رَوَوْهُ عَنْ سَلَفِهِمْ وَبَيْنَ دَلِيلِ قَصْدِ التَّيَمُّنِ، وَدَلِيلُ رَأْيِهِمْ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ لَيْسَتْ آيَةً مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ.

وَقَالُونُ عَنْ نَافِعٍ وَابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو جَعْفَرٍ يُبَسْمِلُونَ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ سِوَى مَا بَيْنَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةَ، وَعَدُّوهُ مِنْ سُنَّةِ الْقِرَاءَةِ، وَلَيْسَ حَظُّهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا اتِّبَاعَ سَلَفِهِمْ، إِذْ لَيْسَ جَمِيعُهُمْ مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ، وَلَعَلَّهُمْ طَرَدُوا قَصْدَ التَّيَمُّنِ بِمُشَابَهَةِ كُتَّابِ الْمُصْحَفِ فِي الْإِشْعَارِ بِابْتِدَاءِ السُّورَةِ وَالْإِشْعَارِ بِانْتِهَاءِ الَّتِي قَبْلَهَا .... وَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اخْتِلَافَ مَذَاهِبِ الْقُرَّاءِ فِي قِرَاءَةِ الْبَسْمَلَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ ابْتِدَاءً وَوَصْلًا كَمَا تَقَدَّمَ لَا أَثَرَ لَهُ فِي الِاخْتِلَافِ فِي حُكْمِ قِرَاءَتِهَا

ومما يؤيد انها آية مستقلة

1-حديث ابي هريرة عند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : { الحمد لله رب العالمين } ، فأقول : حمدني عبدي " الخ ، ولم يذكر بسم الله الرحمن الرحيم .
فلم يرد ذكر البسملة في الحديث قال ابن تيمية :" لو كانت منها لكان للرب ثلاث آيات ونصف، وللعبد ثلاث آيات ونصف.".
2-وكذلك حديث عائشة في بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتبر مرفوعاً إلى النبي ، وذلك قوله : «ففَجِئَه الملَك فقال : اقرأ قال رسول الله فقلت ما أنا بقارىء إلى أن قال فغطني الثالثة ثم قال : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } [العلق : 1] الحديث . فلم يقل فقال لي بسم الله الرحمن الرحيم { اقرأ بسم ربك } .
3-قال ابن تيمية :" وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَاتِحَةَ سُورَةٌ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ، وَالْبَسْمَلَةُ مَكْتُوبَةٌ فِي أَوَّلِهَا، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا مِنْ السُّوَرِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ وُجُوهِ الِاعْتِبَارِ.
وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَتْ مِنْهَا لَتُلِيَتْ فِي الصَّلَاةِ جَهْرًا، كَمَا تُتْلَى آيَاتُ السُّورَةِ".
4- قال ابن تيمية في الفتاوى :" وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ: هَلْ هِيَ آيَةٌ، أَوْ بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ أَوْ لَيْسَتْ مِنْ الْقُرْآنِ إلَّا فِي سُورَةِ النَّمْلِ؟ أَوْ هِيَ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ حَيْثُ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ، وَلَيْسَتْ مِنْ السُّوَرِ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ.
وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: هُوَ أَوْسَطُ الْأَقْوَالِ، وَبِهِ تَجْتَمِعُ الْأَدِلَّةُ، فَإِنَّ كِتَابَةَ الصَّحَابَةِ لَهَا فِي الْمَصَاحِفِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.
وَكَوْنَهُمْ فَصَلُوهَا عَنْ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْهَا.
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {نَزَلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَرَ} إلَى آخِرِهَا}.
وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا جَاءَ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ قَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّك الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، فَهَذَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ، وَلَمْ يَنْزِلْ قَبْلَ ذَلِكَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَثَبَتَ عَنْهُ فِي السُّنَنِ أَنَّهُ قَالَ: سُورَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}.
وَهِيَ ثَلَاثُونَ آيَةً بِدُونِ الْبَسْمَلَةِ.
وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، نِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ قِرَاءَتَهَا فِي الصَّلَاةِ تَجْرِي عَلَى إحْكَامِ النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّة، وَلَيْسَ مَذَاهِبُ الْقُرَّاءِ بِمَعْدُودَةٍ مِنْ أَدِلَّةِ الْفِقْهِ، وَإِنَّمَا قِرَاءَاتُهُمْ رِوَايَاتٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ دُونَ اسْتِنَادٍ إلَى اعْتِبَارِ أَحْكَامِ رِوَايَةِ الْقُرْآنِ مِنْ تَوَاتُرٍ وَدُونِهِ، وَلَا إلَى وُجُوبٍ واستحباب وتخيير، فالقارىء يَقْرَأُ كَمَا رُوِيَ عَنْ مُعَلِّمِيهِ.
وَلَا يَنْظُرُ فِي حُكْمِ مَا يَقْرَأُهُ مِنْ لُزُومِ كَوْنِهِ كَمَا قَرَأَ أَوْ عدم اللُّزُوم، فالقراء تَجْرِي أَعْمَالُهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ عَلَى نَزَعَاتِهِمْ فِي الْفِقْهِ مِنِ اجْتِهَادٍ وَتَقْلِيدٍ، وَيُوَضَّحُ غَلَطُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ خِلَافَ الْفُقَهَاءِ فِي إثْبَاتِ الْبَسْمَلَةِ وَعَدَمِهِ مَبْنِيٌّ عَلَى خِلَافِ الْقُرَّاءِ، كَمَا يُوَضَّحُ
تَسَامُحُ صَاحِبِ «الْكَشَّافِ» فِي عَدِّهِ مَذَاهِبَ الْقُرَّاءِ فِي نَسَقِ مَذَاهِبِ الْفُقَهَاءِ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْمُجْتَهِدُونَ لِأَجْلِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي تَقَدَّمَ بَيَانُهَا، وَأَمَّا الْمُوَافَقَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَّاءِ أَمْصَارِهِمْ غَالِبًا فِي هَاتِهِ الْمَسْأَلَةِ فَسَبَبُهُ شُيُوعُ الْقَوْلِ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ بِمَا قَالَ بِهِ فُقَهَاؤُهُ فِي الْمَسَائِلِ، أَوْ شُيُوعُ الْأَدِلَّةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا المجتهدون من مشائخهم بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ وَلَوْ مِنْ قَبْلِ ظُهُورِ الْمُجْتَهِدِ".

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي فَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.
فَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قَالَ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي.
فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ.وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.
فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ اللَّهُ: هَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ} فَهَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْفَاتِحَةِ، وَلَمْ يُعَارِضْهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ.
وَأَجْوَدُ مَا يُرَى فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ الْحَدِيثِ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُقْرَأُ بِهَا فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْهَا، وَلِهَذَا كَانَ الْقُرَّاءُ مِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ بِهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَقْرَأُ بِهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ سَائِغٌ، لَكِنْ مَنْ قَرَأَ بِهَا كَانَ
قَدْ أَتَى بِالْأَفْضَلِ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَرَّرَ قِرَاءَتَهَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كَانَ أَحْسَنَ مِمَّنْ تَرَكَ قِرَاءَتَهَا ؛ لِأَنَّهُ قَرَأَ مَا كَتَبَتْهُ الصَّحَابَةُ فِي الْمَصَاحِفِ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ كَتَبُوهَا عَلَى وَجْهِ التَّبَرُّكِ لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُقْرَأَ عَلَى وَجْهِ التَّبَرُّكِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَكْتُبُونَ فِي الْمُصْحَفِ مَا لَا يُشْرَعُ قِرَاءَتُهُ، وَهُمْ قَدْ جَرَّدُوا الْمُصْحَفَ عَمَّا لَيْسَ مِنْ الْقُرْآنِ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَمْ يَكْتُبُوا التَّأْمِينَ، وَلَا أَسْمَاءَ السُّوَرِ وَلَا التَّخْمِيسَ، وَالتَّعْشِيرَ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ.
مَعَ أَنَّ السُّنَّةَ لِلْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ عَقِبَ الْفَاتِحَةِ: آمِينَ، فَكَيْفَ يَكْتُبُونَ مَا لَا يُشْرَعُ أَنْ يَقُولَهُ، وَهُمْ لَمْ يَكْتُبُوا مَا يُشْرَعُ أَنْ يَقُولَهُ الْمُصَلِّي مِنْ غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَيْسَتْ مِنْ السُّورَةِ وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ أَنَسٍ لَيْسَ فِيهِ نَفْيُ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ {فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} أَوْ {فَلَمْ يَكُونُوا يَجْهَرُونَ بِبَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} وَرِوَايَةُ مَنْ رَوَى {فَلَمْ يَكُونُوا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا آخِرِهَا} إنَّمَا تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْجَهْرِ، لِأَنَّ أَنَسًا لَمْ يَنْفِ إلَّا مَا عَلِمَ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا كَانَ يَقُولُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرًّا.
وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَسْكُتُ، بَلْ يَصِلُ التَّكْبِيرَ بِالْقِرَاءَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ {أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لَهُ: أَرَأَيْت سُكُوتَك بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَاذَا تَقُولُ} وَمَنْ تَأَوَّلَ حَدِيثَ أَنَسٍ عَلَى نَفْيِ قِرَاءَتِهَا سِرًّا فَهُوَ مُقَابِلٌ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ مُرَادُ أَنَسٍ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَتِحُونَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ قَبْلَ غَيْرِهَا مِنْ السُّوَرِ، وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ فَإِنَّ هَذَا مِنْ الْعِلْمِ الْعَامِّ الَّذِي مَا زَالَ النَّاسُ يَفْعَلُونَهُ، وَقَدْ كَانَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ صَلَّى خَلْفَهُمْ أَنَسٌ يَقْرَءُونَ الْفَاتِحَةَ قَبْلَ السُّورَةِ، وَلَمْ يُنَازِعْ فِي ذَلِكَ أَحْمَدُ وَلَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَحَدٌ لَا أَنَسٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يَرْوِيَ أَنَسٌ هَذَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ، وَمَنْ رَوَى عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ شَكَّ هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْبَسْمَلَةَ أَوْ لَا يَقْرَأُهَا، فَرِوَايَتُهُ تُوَافِقُ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةَ، لِأَنَّ أَنَسًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ هَلْ قَرَأَهَا سِرًّا أَمْ لَا، وَإِنَّمَا نَفَى الْجَهْرَ".

واما ما يتعلق بالجهر بها ؟

ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم قال : صليت خلف رسول الله وأبي بكر وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون { بسم الله الرحمن الرحيم } ، لا في أول قراءة ولا في آخرها رواه البخاري .
وفي لفظ مسلم قال : "صَلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ :"بسم الله الرحمن الرحيم"
وحديث عائشة عند مسلم قالت : كان رسول الله يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءةَ بالحمد الله رب العالمين .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ الرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ الرَّحِيمِ.
وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَصَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ، وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ (2) : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم يقطع قراءته: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.
وقال ابن القيم :" وكان يجهر بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها، ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائماً في كل يوم وليلة خمس مرات أبداً حضراً وسفراً، ويخفى ذلك على خلفائه الراشدين، وعلى جُمهور أصحابه، وأهل بلده في الأعصار الفاضلة، هذا من أمحل المحال حتى يحتاج إلى التشبث فيه بألفاظ مجملة، وأحاديث واهية، فصحيح تلك الأحاديث غير صريح، وصريحها غير صحيح، وهذا موضع يستدعي مجلّداً ضخماً .انظر زاد المعاد (1/ 206- 207). وبناءً على ما تقدم، فالسنة الإسرار بالبسملة، ولا بأس بالجهر بها في بعض الأحيان جمعاً بين الأدلة. والله أعلم. ".
وقال شيخ الاسلام انه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه جهر بالبسملة.
فقال:" لو كانت منها لتُلِيَت في الصلاة جهرًا كما تُتْلى سائر آيات السورة .".
وقد وجَّه ابنُ عطية بعض الأحاديث التي قد يُفهم منها كون البسملة آية، بأنها كانت قراءة في غير صلاة على جهة التعلم، فأمر النبي ﷺ بقراءة البسملة لهذا، لا لأنها آية.
وقال الالباني :" الحق أنه ليس في الجهر بالبسملة حديث صريح صحيح ، بل صح عنه صلى الله عليه وسلم الإسرار بها من حديث أنس ، وقد وقفت له على عشرة طرق ذكرتها في تخريج كتابي " صفة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ، أكثرها صحيحة الأسانيد ، وفي بعض ألفاظها التصريح بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يجهر بها ، وسندها صحيح على شرط مسلم ، وهو مذهب جمهور الفقهاء ، وأكثر أصحاب الحديث ، وهو الحق الذي لا ريب فيه ، ومن شاء التوسع في هذا البحث فليراجع " فتاوى شيخ الإسلام " ، ففيها مقنع لكل عاقل منصف . انتهى كلام الالباني من تمام المنة.".
واختار بعض اهل العلم ان الجهر وعدم الجهر بحسب القراءة فعند من يقرأ برواية حفص عن عاصم: توجد البسملة، ولذلك قال الشافعي: نقرأ البسملة؛ لأنها عند هذا الوجه تُعامل كآية من الفاتحة، ونحن مأمورون بقراءة الفاتحة.
وعند من يقرأ بقراءة نافع (مثل ورش عن نافع أو قالون عن نافع): لا تُعدّ البسملة آية من الفاتحة في هذا الوجه، ولذلك كان أهل المدينة—ومنهم الإمام مالك—يبدؤون بـ "الحمد لله رب العالمين."
قال ابن كثير :" فأمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بالجهر بها، فَمُفَرَّعٌ عَلَى هَذَا؛ فَمَنْ رَأَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ فَلَا يَجْهَرُ بِهَا، وَكَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا آيَةٌ مِنْ أَوَّلِهَا(أي الفاتحة)، وأمَّا مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ السُّوَرِ فَاخْتَلَفُوا؛ فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَى أَنَّهُ يَجْهَرُ بِهَا مَعَ الْفَاتِحَةِ وَالسُّورَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَوَائِفَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا فَجَهَرَ بِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُعَاوِيَةُ، وَحَكَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ، وَنَقَلَهُ الْخَطِيبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، وَهُوَ غَرِيبٌ.(قال الشيخ خالد السبت وهذا لم يثبت عنهم ([24]))....

---

[24] ـ قال الالباني في صفة الصلاة :" قال ابن حجر في الفتح :"وبذلك يتبين أن حديث أنس حجة في كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسر بالبسملة ، وكذلك أصحابه الثلاثة ، ومثله حديث عبد الله بن مغفل . وقد قال الترمذي :" والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ منهم : أبو بكر وعمر وعثمان ، وغيرهم ، ومن بعدهم من التابعين ، وبه يقول سفيان الثوري وابن المبارك ، وأحمد ، وإسحاق ؛ لا يرون أن يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ؛ قالوا : ويقولها في نفسه " .

قلت : وهو مذهب أبي حنيفة ، وصاحبيه - كما حكاه الطحاوي وغيره - ، ونص عليه الإمام محمد في " الآثار " (15 - 16) ، وبه قال أكثر أصحاب الحديث - كما قال الحازمي (56) - ، وخالفهم الإمام الشافعي ، وأصحابه ، وبعض من سبقه من الصحابة ، والتابعين ؛ فقالوا بالجهر بها ، وأنه السنة .
وقد أطال النووي رحمه الله في " المجموع " (334/3 - 356) في الاستدلال لذلك بأحاديث كثيرة ساقها ! والناظر فيها بإنصاف ؛ لا يخرج منها بحديث واحد صحيح صريح يدل على ما ذهبوا إليه . ولذلك سأسوق في هذا التعليق منها ما يرد في الجهر بها صريحاً ؛ مما قد صححه بعضهم ، وأدع الكلام على سائرها المطولات كـ " نصب الراية " ، و " نيل الأوطار " ، أو غيرهما .
الحديث الأول : عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وله عنه طرق :
الأولى : ما أخرجه الشافعي في " الأم " (93/1) ، ومن طريقه الدارقطني (117) ، والحاكم (233/1) ، والبيهقي (49/2) ؛ ثلاثتهم عن الشافعي قال : أخبرنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن ابن جُرَيج قال : أخبرني عبد الله بن عثمان بن خُثَيم : أن أبا بكر بن حفص بن عمر أخبره : أن أنس بن مالك أخبره قال : صلى معاوية بالمدينة صلاة ، فجهر فيها بالقراءة ؛ فقرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } لِ { أم القرآن } ، ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها ، حتى قضى تلك القراءة ، ولم يكبر حين يهوي ، حتى قضى تلك الصلاة ، فلما سلَّم ؛ ناداه من سمع ذلك من المهاجرين من كل مكان : يا معاوية ! أسرقت الصلاة أم نسيت ؟! فلما صلَّى بعد ذلك ؛ قرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } للسورة التي بعد { أم القرآن } ، وكبَّر حين يهوي ساجداً . قال الدارقطني : " رجاله كلهم ثقات " . وقال الحاكم : " صحيح على شرط مسلم " - ووافقه الذهبي - ، ثم قال : وقد احتج مسلم بعبد المجيد بن عبد العزيز ، وسائر الرواة متفقٌ على عدالتهم ، وهو علة لحديث شعبة عن قتادة ؛ فإن قتادة - على علو قدره - يدلس ، ويأخذ من كل أحد " . كذا قال ! وهو يشير بذلك إلى حديث أنس السابق في إسراره بالبسملة . وهذه العلة ليست بشيء ؛ لأن قتادة صرح بسماعه من أنس ، فبطل ما أعله الحاكم به .
ثم إن في كلامه مؤاخذاتٍ أخرى : الأولى : أن مسلماً لم يحتج بعبد المجيد هذا ؛ وإنما روى له مقروناً بغيره - كما في " التهذيب " - . وقال الحافظ في " التقريب " : " صدوق يخطئ " . إلا أنه قد تابعه عبد الرزاق عند الدارقطني ، والبيهقي .
الثانية : أن عبد الله بن عثمان هذا ؛ ليس متفقاً على الاحتجاج به - كما يفيده كلام الحاكم - ، والبخاري إنما أخرج له تعليقاً ، ثم هو مختلف فيه - وإن كان مسلم قد احتج به - ؛ فوثقه ابن معين ، وغيره ، والنسائي في رواية ، وقال في أخرى : " ليس بالقوي " . ورُوي نحوُه عن ابن معين . وقال ابن عدي : " أحاديثه حسان " .
قلت : والحق أنه ثقة حجة ، وحديثه أقل أحواله أنه حسن يحتج به ؛ إلا إذا خالف من هو أقوى منه في الحديث ، والواقع هنا كذلك ؛ فقد سبق بيان أن الحديث رواه جمعٌ عن جمعٍ عن أنس : أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُسِرُّ بالبسملة .
فكيف يروي أنس مثل حديث معاوية هذا محتجاً به ، وهو مخالف لما رواه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعن الخلفاء الراشدين ؟! ولم يُعرف عن أحد من أصحاب أنس المعروفين بصحبته أنه نقل عنه مثل ذلك . وهذا أحد الوجوه التي ضعف المحققون حديث ابن خثيم هذا عن أنس .
والوجه الثاني : أنه اضطرب في روايته إسناداً ومتناً :
أما الأول : فتارة يرويه عن أبي بكر بن حفص عن أنس - كما سبق - . وتارة يرويه عن إسماعيل بن عُبيد بن رِفاعة عن أبيه عن معاوية . أخرجه الشافعي (93/1 - 94) ، ومن طريقه البيهقي (49/2 - 50) عن إبراهيم بن محمد الأسلمي ويحيى بن سُليم ؛ كلاهما عن ابن خثيم عن إسماعيل به .
وتارة يقول : عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده عن معاوية . أخرجه الدارقطني (117) عن إسماعيل بن عياش عن ابن خثيم بهذا .
فاختلفوا في الترجيح ، فرجح الأولى البيهقي في " المعرفة " ؛ لجلالة راويها - وهو ابن جريج - ، وقال في " السنن " : " يحتمل أن يكون ابن خثيم سمعه منهما . والله أعلم " .
ومال الشافعي إلى ترجيح الرواية الثانية ؛ لاتفاق اثنين عليها .ولكنهما متكلم فيهما . فأما الأسلمي ؛ فمكشوف الحال ، وأما يحيى بن سليم ؛ فقال البيهقي : " كثير الوهم ، سيئ الحفظ " . قال ابن التركماني : " فظهر بهذا أن حديث ابن جريج إسناده أحفظ ؛ لأنه أَجلُّ منهما ، وأحفظ بلا شك " .
قلت : وأما الرواية الثالثة ؛ فتفرد بها ابن عياش ، وهو ضعيف في الحجازيين ، وهذه منها .

وأما الاضطراب في المتن : فتارة يقول : صلى ، فبدأ بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } لِ { أم القرآن } ، ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها - كما في رواية ابن جريج عند الشافعي - .
وتارة يقول : فلم يقرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } حين افتتح القرآن - كما في رواية ابن عياش - .
وتارة يقول : فلم يقرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } لِ { أم القرآن } ، ولم يقرأها للسورة التي بعدها - كما في رواية الدارقطني عن ابن جريج - . قال الزيلعي (354/1) : " ومثل هذا الاضطراب في السند والمتن ، مما يوجب ضعف الحديث ؛ لأنه مشعر بعدم ضبطه " .
والوجه الثالث : أن معاوية لما قدم المدينة ؛ كان أنس مقيماً بالبصرة ، ولم يذكر أحد علمناه أنه كان مع معاوية حينئذٍ ؛ بل الظاهر أنه لم يكن معه .
والوجه الرابع : أن مذهب أهل المدينة - قديماً وحديثاً - ترك الجهر بها ، ومنهم من لا يرى قراءتها أصلاً ؛ قال عروة بن الزبير - أحد الفقهاء السبعة - : أدركت الأئمة وما يستفتحون القراءة إلا بـ : { الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ } .
وقال عبد الرحمن الأعرج : أدركت الأئمة وما يستفتحون القراءة إلا بـ : { الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ } .
ولا يُحفظ عن أحد من أهل المدينة بإسناد صحيح أنه كان يجهر بها ، إلا شيء يسير ، وله محمل . وهذا عملهم يتوارثه آخرهم عن أولهم، فكيف ينكرون على معاوية ما هو شبههم ؟! هذا باطل .
والوجه الخامس : أن معاوية لو رجع إلى الجهر بالبسملة - كما نقلوه - ؛ لكان هذا أيضاً معروفاً من أَمْره عند أهل الشام الذين صحبوه ، ولم يُنقل هذا أحد عن معاوية ؛ بل الشاميون - كلهم : خلفاؤهم ، وعلماؤهم - كان مذهبهم ترك الجهر بها . وما روي عن عمر ابن عبد العزيز من الجهر بها باطل ؛ لا أصل له . والأوزاعي - إمام الشام - مذهبه في ذلك مذهب مالك : لا يقرؤها سراً ، ولا جهراً . قال شيخ الإسلام في " الفتاوى " (85/1) : " فهذه الوجوه وأمثالها إذا تدبرها العالم ؛ قطع بأن حديث معاوية إما باطل لا حقيقة له ، وإما مُغَيَّرٌ عن وجهه " . ا هـ .
فإذا كان هذا حالَ هذا الحديث - وهو أجود ما يعتمد عليه في هذه المسألة ، كما قال الخطيب البغدادي فيما نقله عنه نصر المقدسي - ؛ علمت حال الأحاديث الأخرى .
الطريق الثانية : عن محمد بن المتوكل بن أبي السَّرِيّ قال : صليت خلف المعتمر بن سليمان من الصلوات ما لا أحصيها ؛ الصبح والمغرب ، فكان يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } قبل { فاتحة الكتاب } وبعدها ، وسمعت المعتمر يقول : ما آلو أن أقتدي بصلاة أبي . وقال أبي : ما آلو أن اقتدي بصلاة أنس بن مالك . وقال أنس : ما آلو أن أقتدي بصلاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أخرجه الدارقطني (116) ، والحاكم (233/1 - 234) ، وقال : " رواته عن آخرهم ثقات " . ووافقه الذهبي . وهو كما قالا ، لكن لا يلزم منه أنه صحيح ثابت ؛ لأن الصحة لا تثبت حتى ينتفي الشذوذ والعلة ، ويثبت حفظ الراوي وضبطه ، وكل هذا غير متحقق هنا ؛ فإن ابن أبي السَّرِيّ هذا متكلَّم فيه من جهة حفظه ، وفي " التقريب " : " صدوق ، له أوهام كثيرة " . ا هـ .
وهذا الحديث من أوهامه ؛ بدليل ما رواه ابن خزيمة في " مختصره " ، والطبراني في " معجمه " عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن عن أنس .
أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في الصلاة ، وأبو بكر ، وعمر . وكذلك رواه الثقات الأثبات عن أنس - كما سبق - ، فمخالف حديثهم مخطئ - ولا شك - . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه سقط من الحديث : " لا " . فإن صح ذلك ؛ فهو حينئذٍ موافق لرواية الثقات .
وللحديث طرق أخرى عن أنس ضعيفة ، لم يصححها أحد ، فلا نطيل بذكرها ؛ اللهم ! إلا ما رواه الحاكم (233/1) من طريق أَصْبَغ بن الفرج : ثنا حاتم بن إسماعيل
عن شَرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر عن أنس قال : سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } . وقال : " رواته عن آخرهم ثقات " . ووافقه الذهبي . قلت : ولكن هذا ليس فيه قوله : " في الصلاة " . فلا حجة فيه ؛ على أن بعض الرواة قد أعله : فأخرجه الدارقطني (116) من طريق عمر بن محمد بن علي بن الحسين عن حاتم ابن إسماعيل عن شريك بن عبد الله عن إسماعيل المكي عن قتادة عن أنس به . وإسماعيل هذا : ضعيف . والله أعلم .
وبهذا اللفظ أخرجه الدارقطني من طريق إبراهيم بن محمد القاضي التيمي : ثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس قال : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بالقراءة بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } . وهذا سند صحيح على شرطهما . فلعل هذا هو أصل حديث ابن أبي السري عن المعتمر ؛ فوهم فيه ابن أبي السري ، وزاد فيه ما زاد . والله أعلم .
الحديث الثاني : عن ابن عباس قال : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } .أخرجه الحاكم (208/1) من طريق عبد الله بن عمرو بن حسان : ثنا شريك عن سالم عن سعيد بن جبير عنه . وقال : "

صحيح ، وليس له علة " . قال الذهبي :" كذا قال المصنف ! وابن حسان : كذبه غير واحد ، ومثل هذا لا يخفى على المصنف " . وقال الحافظ في " التلخيص " (323/3) : " وصححه الحاكم ! وأخطأ في ذلك ؛ فإن عبد الله نسبه ابن المديني إلى وضع الحديث ، وقد سرقه أبو الصلت الهروي - وهو متروك - ؛ فرواه عن عباد بن العوام عن شريك " . أخرجه الدارقطني (114) . وقال في " الدراية " (73) :

" وأصله مرسل بإسناد رجاله ثقات . أخرجه إسحاق عن يحيى بن آدم عن شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ؛ يمد بها صوته ، وكان المشركون يهزؤون منه ؛ فأنزل الله تعالى : { وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ } . وقد أخرجه الدارقطني ، والطبراني في " الأوسط " من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي عن عباد بن العوام عن شريك موصولاً بلفظ : كان إذا قرأ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ؛ هَزَأَ منه المشركون ، ويقولون : محمد يذكر إله اليمامة . فهذا هو أصل الحديث ، وتبين أنه إنما وقع فيه اختصار .

وقد أخرجه البخاري من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : { وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا } ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختفٍ بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه ؛ رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون ؛ سبّوا القرآن ... الحديث . فهذا أصل الحديث " . ا هـ .

وله طرق أخرى ، ذكرها الزيلعي (345/1 - 347) ، وضعفها ، وبين عللها . ومما يدل على ضعف الحديث عن ابن عباس ؛ أنه ثبت عنه أنه قال :

الجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فعل الأعراب . أخرجه الطحاوي (120/1) عن عاصم وعبد الملك بن أبي بشير عن عكرمة عنه .

وأخرجه أحمد - كما في " نصب الراية " (347/1) - عن سفيان عن عبد الملك وحده . وهذا إسناد صحيح . قال : " ويقوي هذه الرواية : ما رواه الأثرم بإسناد ثابت عن عكرمة - تلميذ ابن عباس – أنه قال : أنا أعرابي إنْ جهرت بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } . وكأنه أخذه عن شيخه ابن عباس " .

الحديث الثالث : عن علي وعمار : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجهر في المكتوبات بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ... الحديث . أخرجه الحاكم (299/1) من طريق سعيد بن عثمان الخَرَّاز : ثنا عبد الرحمن بن سعيد المؤذن : ثنا فِطْر بن خليفة عن أبي الطُّفَيل عنهما . وقال : " صحيح الإسناد ، ولا أعلم في رواته منسوباً إلى الجرح " . وتعقبه الذهبي ؛ فقال : " قلت : بل خبر واهٍ ، كأنه موضوع ؛ لأن عبد الرحمن صاحب مناكير ، وسعيد : إن كان الكُرَيزي ؛ فهو ضعيف ، وإلا ؛ فهو مجهول " . ا هـ .

ولذلك قال الحافظ في " الدراية " (71) : " وإسناده ضعيف " . وعن الحاكم رواه البيهقي في " المعرفة " - بسنده ومتنه - وقال : " إسناده ضعيف " .

قلت : فهذه الأحاديث الثلاثة ؛ هي أصح ما ورد في الجهر بالبسملة وأصرحها ، وقد ظهر لك أنها ضعيفة كلها ، إلا حديث أنس في بعض طرقه ، لكن ليس فيه أنه كان يجهر بها في الصلاة ؛ ولذلك قال ابن القيم في " الزاد " (73/1) : " وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بـ : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } تارة ، ويخفيها أكثر مما يجهر بها ، ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائماً في كل يوم وليلة ؛ خمس مرات أبداً ، حضراً وسفراً ، ويخفى ذلك على خلفائه الراشدين ، وعلى جمهور أصحابه ، وأهل بلده في الأعصار الفاضلة ؛ هذا من أمحل المحال حتى يحتاج إلى التشبُّث فيه بألفاظ مجملة ، وأحاديث واهية ؛ فصحيح تلك الأحاديث غير صريح ، وصريحها غير صحيح " .

قلت : وآخر كلامه يناقض أوله ؛ لأنه إذا كان يرى - وهو الحق - أنه لا يصح حديث صريح في الجهر بها ؛ فكيف يجزم بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجهر بها تارة؟!

وقد كان شيخه ابن تيمية أدق منه في التعبير في هذا الموضع ؛ حيث قال في " الفتاوى " (79/1) في صدد هذا البحث : " ولكن يمكن أنه كان يجهر بها أحياناً ، أو أنه كان يجهر بها قديماً ثم ترك ذلك ؛ قال - : فهذا محتمل " .

فلم يجزم بذلك ؛ بل ذكره احتمالاً ، وهو أمر واسع ، فالحق ما ذهب إليه الجمهور من أن السنة الإسرار بها .

ومع هذا ؛ فالصواب أن ما لا يجهر به ، قد يشرع الجهر به لمصلحة راجحة ؛ فيشرع للإمام أحياناً لمثل تعليم المأمومين ، ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحياناً ؛ كما في حديث ابن عمرو ، وأنس بن مالك المتقدمين في (الاستفتاح) رقم (7 و 8) ؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينكر على الرجلين جهرهما بما استفتحا به .

وكذلك جهر به عمر ؛ تعليماً للناس - كما مضى هناك - . قال شيخ الإسلام (87/1) : " ويسوغ أيضاً أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ؛ خوفاً من التنفير عما يصلح ، كما ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء البيت على قواعد إبراهيم ؛ لكون قومه كانوا حديثي عهد بالجاهلية ، وخشي تنفيرهم بذلك ، ورأى أن مصلحة الاجتماع والائتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم ، وقال ابن مسعود - لما أكمل الصلاة خلف

والحُجَّة فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بَعْضُ الْفَاتِحَةِ، فَيُجْهَرُ بِهَا كَسَائِرِ أَبْعَاضِهَا،(ولا يلزم من ذلك الجهر بها فان الثابت عن رسول الله صلى الله وسلم وهو القدوة المتبع الإسرار بها) وَأَيْضًا فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى فَجَهَرَ فِي قِرَاءَتِهِ بِالْبَسْمَلَةِ، وَقَالَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ: إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَصَحَّحَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَالْخَطِيبُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمْ (وضعفه الالباني في تمام المنة) .
وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ .
وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْهَرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ (وفي إسناده عبد الله بن عمرو بن حسان، كذبه الدارقطني، وقال علي بن المديني: يضع الحديث؛ لذلك تعقب الذهبي الحاكم على تصحيحه فقال: "ابن كيسان كذبه غير واحد، ومثل هذا لا يخفى على المصنف" - أي الحاكم.).
وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ الرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ الرَّحِيمِ (والحديث يستدل به من يقول ان البسملة آية من الفاتحة ومن يقول بالجهر بها والحديث ليس فيه دليل انها آية من الفاتحة وانه يجهر بها في الصلاة) .
وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَصَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ، وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم يقطع قراءته: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ (لكن ليس في الحديث ان ذلك كان في الصلاة كما الحديث ليس بصريح ان البسملة آية من الفاتحة).
وَرَوَى الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَلَّى بِالْمَدِينَةِ، فَتَرَكَ الْبَسْمَلَةَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا صَلَّى الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ بَسْمَلَ (لكنه لا يصح) .
وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، وَالْآثَارِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا كِفَايَةٌ وَمَقْنَعٌ فِي الِاحْتِجَاجِ لِهَذَا الْقَوْلِ عَمَّا عَدَاهَا، فَأَمَّا الْمُعَارَضَاتُ وَالرِّوَايَاتُ الْغَرِيبَةُ، وَتَطْرِيقُهَا، وَتَعْلِيلُهَا وَتَضْعِيفُهَا، وَتَقْرِيرُهَا، فَلَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ.
وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَا يُجْهَرُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ(وكان رحمه الله تعالى قد نسب لهم قبل ذلك الجهر بالبسملة وهنا ينفي ذلك عنهم) وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، وَطَوَائِفٍ مِنْ سَلَفِ التَّابِعِينَ وَالْخَلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.
وَعِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكٍ: أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ الْبَسْمَلَةَ بِالْكُلِّيَّةِ، لَا جَهْرًا وَلَا سِرًّا،(بناءً على ان مذهبه انها ليست بآية لا من السورة ولا من غير السورة ,قال الشيخ عبد العزيز الراجحي :وهو اضعف الاقوال) وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ، والقراءة بالحمد لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
وَبِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
وَلِمُسْلِمٍ: لَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا .
وَنَحْوَهُ فِي السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .(لكن ليس في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يبسمل سراً وهذه الاحاديث صريحة بعدم الجهر بالبسملة).

عثمان ، وأنكر عليه التربيع ، فقيل له في ذلك ؟ فقال - : الخلاف شر . ولهذا نَصَّ الأئمةُ ؛ كأحمد وغيره في البسملة ، وفي وصل الوتر ، وغير ذلك مما فيه العدول عن الأفضل إلى الجائز المفضول ؛ مراعاة ائتلافِ المأمومين ، أو لتعريفهم السنة ، وأمثال ذلك .والله أعلم " .

فَهَذِهِ مَآخِذُ الْأَئِمَّةِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ صَلَاةِ مَنْ جَهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ وَمَنْ أَسَرَّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ". لكن الخلاف في الأفضل والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ومع هذا : فالصواب : أن ما لا يُجهر به ، قد يشرع الجهر به لمصلحة راجحة ، فيشرع للإمام ـ أحيانا ـ لمثل تعليم المأمومين ، ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحيانا ، ويسوغ أيضا أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب واجتماع الكلمة ، خوفاً من التنفير عما يصلح ، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم ؛ لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية ، وخشي تنفيرهم بذلك ، ورأى أن مصلحة الاجتماع والائتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم ، وقال ابن مسعود ، لما أكمل الصلاة خلف عثمان وأنكر عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : " الخلاف شر " ؛ ولهذا نص الأئمة كأحمد وغيره على ذلك بالبسملة ، وفي وصل الوتر ، وغير ذلك مما فيه العدول عن الأفضل إلى الجائز المفضول ؛ مراعاة ائتلاف المأمومين أو لتعريفهم السنَّة وأمثال ذلك " انتهى من " مجموع الفتاوى " (22 / 436 ، 437).

وقال أيضاً : " فترك الأفضل عنده لئلا ينفر الناس ، وكذلك لو كان رجل يرى الجهر بالبسملة فأمَّ بقوم لا يستحبونه أو بالعكس ووافقهم : كان قد أحسن. " انتهى من " مجموع الفتاوى " .

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله: ـ ما حكم الجهر بالبسملة ؟.

فأجاب : " الراجح : أن الجهر بالبسملة لا ينبغي ، وأن السنَّة الإسرار بها ؛ لأنها ليست من الفاتحة ، ولكن لو جهر بها أحياناً : فلا حرج ؛ بل قد قال بعض أهل العلم : " إنه ينبغي أن يجهر بها أحياناً ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد روي عنه " أنه كان يجهر بها. "

ولكن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم " أنه كان لا يجهر بها " ، وهذا هو الأولى : أن لا يجهر بها.

ولكن لو جهر بها تأليفاً لقوم مذهبهم الجهر : فأرجو أن لا يكون به بأس. " انتهى من " مجموع فتاوى الشيخ العثيمين " .

فاما القراءة بها خارج الصلاة فالأمر واسع واختار كثير القراء انه يجهر بها ان جهر بالقراءة ويسر بها ان اسر.

ولكن الخلاف في الجهر بها في الصلاة فقضية تتعلق بصفة الصلاة فالنصوص ليست بقاطعة انه النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها في الصلاة والادلة الصحيحة انه كان لا يجهر بها كحديث انس رضي الله عنه واما ما جاء من الادلة الصريحة في الجهر بالقراءة فقد تكلم فيها علماء الحديث ورموها بالضعف .

فالحاصل ان الاسرار بها هو الاقرب ولو جهر بها للتعليم او لدفع مفسدة كأن يقرأ بها عند من يرى الجهر بها واجبا دفعا للخصام فلا بأس.

ولو اسقطها فيصح على بعض اوجه القراءات المتواترة كقراءة نافع .

وقال شيخ الاسلام في الفتاوى(352/22) :" والقراء مِنْهُمْ مَنْ يَفْصِلُ بِهَا بَيْنَ السُّورَتَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَفْصِلُ لِكَوْنِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ كَلَامَ اللَّهِ فَلَا يَفْصِلُونَ بِهَا بَيْنَ السُّورَتَيْنِ كَمَنْ سَمَّى إذَا أَكَلَ ثُمَّ أَكَلَ أَنْوَاعًا مِنْ الطَّعَامِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ وَهَذَا أَحْسَنُ لِمُتَابَعَتِهِ لِخَطِّ الْمُصْحَفِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ رَفْعِ طَعَامٍ وَوَضْعِ طَعَامٍ فَالتَّسْمِيَةُ عِنْدَهُ أَفْضَلُ وَكَذَلِكَ مَنْ ذَبَحَ شَاةً بَعْدَ شَاةٍ فَالتَّسْمِيَةُ عَلَى كُلِّ شَاةٍ أَفْضَلُ وَأَمَّا تِلَاوَتُهَا فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ فَهُوَ ابْتِدَاءٌ بِهَا لِلْقُرْآنِ وَلِهَذَا اخْتَلَفَ كَلَامُ أَحْمَد هَلْ قِرَاءَتُهَا فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ وَاجِبَةٌ فَرْضٌ لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إلَّا بِهَا ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ . ".

قوله تعالى: { بسم الله الرحمن الرحيم } ([25]):

---

[25] ـقال ابو حيان :" بَاءُ الْجَرِّ تَأْتِي لِمَعَانٍ: لِلْإِلْصَاقِ، وَالِاسْتِعَانَةِ، وَالْقَسَمِ، وَالسَّبَبِ، وَالْحَالِ، وَالظَّرْفِيَّةِ، وَالنَّقْلِ. فَالْإِلْصَاقُ: حَقِيقَةٌ مَسَحْتُ بِرَأْسِي، وَمَجَازًا مَرَرْتُ بِزَيْدٍ. وَالِاسْتِعَانَةُ: ذَبَحْتُ بِالسِّكِّينِ. وَالسَّبَبُ: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا } .

الجار والمجرور متعلق بمحذوف متاخر يدل عليه الكلام تقديره (باسم الله أبدا أو أقرأ)
قال الطبري :" القائل إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تاليًا سورةً، أن إتباعه "بسم الله الرحمن الرحيم" تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: "بسم الله" عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله "بسم الله"، وأنه أراد بقِيلِه "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال".
واختار ابن عثيمين تقديره متأخرا فقال :"وقدرناه متأخراً لفائدتين:
الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزّ وجل.
والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر".
قال الطبري :" إن الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه أدّب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدُّم إليه في وَصفه بها قبل جميع مُهمَّاته ، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلَّمه إياه، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها ، وسبيلا يتَّبعونه عليها، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: "بسم الله" ، على من بطن من مراده الذي هو محذوف ".
وبذكرها يصاغر الشيطان كما جاء عن أبي المليح عن أبيه رضي الله عنه قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فعثر بعيرنا
فقلت تعس الشيطان فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل تعس الشيطان فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي ولكن قل بسم الله فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب . رواه النسائي والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد وصححه الالباني.
قال ابن كثير :" فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ بِسْمِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوّل كل عمل وَقَوْلٍ. فَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ لِمَا جَاءَ: "كُلُّ أَمْرٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَهُوَ أَجْذَمُ"(وضعفه الالباني في صحيح ابي داود وغيره)، [وَتُسْتَحَبُّ الْبَسْمَلَةُ عِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ وَلِمَا وَرَدَ مِنَ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ] ، وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ لِمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالسُّنَنِ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ مرفوعًا: "لا وضوء لمن لم يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ([26]).
وَهَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْأَكْلِ لِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: "قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ" . وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، وَكَذَلِكَ تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْجِمَاعِ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا".

وَالْقَسَمُ: بِاللَّهِ لَقَدْ قَامَ. وَالْحَالُ: جَاءَ زَيْدٌ بِثِيَابِهِ. وَالظَّرْفِيَّةُ: زَيْدٌ بِالْبَصْرَةِ. وَالنَّقْلُ: قُمْتُ بِزَيْدٍ. وَتَأْتِي زَائِدَةً لِلتَّوْكِيدِ: شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ. وَالْبَدَلُ: فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا أَيْ بَدَلَهُمْ.
وَالْمُقَابَلَةُ: اشْتَرَيْتُ الْفَرَسَ بِأَلْفٍ. وَالْمُجَاوَزَةُ: تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ أَيْ عَنِ الْغَمَامِ.
وَالِاسْتِعْلَاءُ: مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ. وَكَنَّى بَعْضُهُمْ عَنِ الْحَالِ بِالْمُصَاحَبَةِ، وَزَادَ فِيهَا كَوْنَهَا لِلتَّعْلِيلِ. وَكَنَّى عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِالسَّبَبِ، وَعَنِ الْحَالِ، بِمَعْنَى مَعَ، بِمُوَافَقَةِ مَعْنَى اللَّامِ. ".
[26] ـ والخلاف في صحة الحديث معروف عند اهل العلم والاقرب قول من قال بضعفه لكن يمكن ان يستدل للبسملة في اول الوضوء حديث انس عند النسائي طلبَ بعضُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ وضوءًا ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ : هل معَ أحدٍ منْكم ماءٌ ؟ فوَضعَ يدَهُ في الماءِ ، ويقولُ : توضَّؤوا باسمِ اللَّهِ . فرأيتُ الماءَ يخرجُ من بينِ أصابعِهِ ، حتَّى تَوضَّؤوا مِن عندِ آخرِهم .قالَ ثابتٌ : قلتُ لأنسٍ : كم تراهُم ؟ قالَ : نحوًا من سَبعينَ (وصححه الالباني). ويعتبره البيهقي أصح ما ورد في التسمية عند الوضوء.
واستدل له البخاري بحديث البسملة عند الجماع على اعتبار ان البسملة عند الوضوء من باب الاولى .

وَمِنْ هَاهُنَا (أي مما تقدم الاحاديث على ضعف بعضها) يَنْكَشِفُ لَكَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ النُّحَاةِ فِي تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِكَ: بِاسْمِ اللَّهِ، هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ مُتَقَارِبَانِ وَكُلٌّ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ أَمَّا مَنْ قَدَّرَهُ بِاسْمٍ، تَقْدِيرُهُ: بِاسْمِ اللَّهِ ابْتِدَائِي(فقدره باسم عام)، فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [هُودٍ: 41](وهنا قدر باسم خاص) ، وَمَنْ قَدَّرَهُ بِالْفِعْلِ [أَمْرًا](وفيه اشكال من جهة ان الانسان لا يأمر نفسه بالبسملة) وَخَبَرًا(ابدأ بالمضارع وابتدأت او ابتدأُ بالماضي) نَحْوَ: أَبْدَأُ بِبِسْمِ اللَّهِ أَوِ ابْتَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ] (فقدره فعلا عاما) ، فَلِقَوْلِهِ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [الْعَلَقِ: 1] وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، فَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ الْفِعْلَ وَمَصْدَرَهُ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْفِعْلِ الَّذِي سَمَّيْتَ قَبْلَهُ، إِنْ كَانَ قِيَامًا أَوْ قُعُودًا أَوْ أَكْلًا أَوْ شُرْبًا أَوْ قِرَاءَةً أَوْ وُضُوءًا أَوْ صَلَاةً (أي تقدره فعلا خاصا)، فَالْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشُّرُوعِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتْمَامِ وَالتَّقَبُّلِ ".

فالمشروع ان لا ينسى الانسان البسملة سوء قدرت جملة فعلية او اسمية لا يضر .

قال السعدي :" {بِسْمِ اللَّهِ} أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ {اسم} مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى] ".([27])

و "الله" اسمَ ربنا عزّ وجلّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه . أي المعبود حباً، وتعظيماً.

قال الطبري :" وأما تأويل قول الله تعالى ذكره "الله"، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس-: هو الذي يَأْلَهه كل شيء، ويعبده كل خلْقٍ".([28])

---

[27] ـ ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا]

قالوا يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات قال [أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن]. رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه الالباني .

فهناك أسماء لله تعالى استأثر الله بها في علم الغيب عنده، فليست أسماؤه محصورة بعدد.

[28] ـ قال " ابن كثير " : " الله :علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من : فعل ، ويفعل.

فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد ، لا اشتقاق له.

وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام فيه لازمة.

قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة ، لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام.

وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله درُّ الغانيات المُدَّهِ * سَبَّحْنَ واسترجَعْنَ من تألُّهي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من : أَلِه ، يأله ، إلاهة ، وتألها.

كما روي أن ابن عباس قرأ: "ويذرك وإلاهتك" قال: عبادتك، أي: أنه كان يعبد ولا يعبد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقًا بقوله: { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ } [الأنعام: 3] أي: المعبود في السماوات والأرض، كما قال: { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ } [الزخرف: 84].

ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة، قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس.

وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاَهِ ابنُ عَمِّكَ لاَ أَفْضَلْتَ فى حَسَبٍ * عَنِّى ولا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسوسني.

وقال ابن كثير :" {اللَّهِ} عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ[29]؛ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ

وقال الكسائي والفراء: أصله: الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال :{ لكنا هو الله ربي }[الكهف: 38] أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن.
قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله، وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل في الصحاري، فالله تعالى تتحير أولو الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: إشاح، ووسادة: إسادة.
وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق من ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى: { أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: 28].
قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب.
وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل، إذأ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال.
قال: وقيل: مشتق من أله الرجل يأله: إذا فزع من أمر نزل به، فألهه، أي: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار: هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: " { وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ } [المؤمنون: 88] ، وهو المنعم لقوله: { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: 53] ، وهو المطعم لقوله: (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ) [الأنعام: 14] ، وهو الموجد لقوله: { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } [النساء: 78. [
وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم غير مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه:
منها: أنه لو كان مشتقا لاشترك في معناه كثيرون.
ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى :العزيز الحميد الله]إبراهيم: 1، 2] على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان.
ومنها قوله تعالى :هل تعلم له سميا]مريم: 65] ، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدًا غير مشتق نظر، والله أعل"
والصواب أنه مشتق، وكل أسماء الله مشتقة وليست جامدة، فهي مشتملة على معاني وصفات، فالله مشتمل على صفة الإلوهية، والرحمن مشتمل على صفة الرحمة، والعليم مشتمل على صفة العلم، والقدير مشتمل على صفة القدرة، والسميع مشتمل على صفة السمع، والبصير مشتمل على صفة البصر، والحي مشتمل على صفة الحياة، وهكذا فكل أسماء الله مشتق منها صفات، بخلاف الصفة فلا يشتق منها اسم لله، وإنما الاسم يشتمل على الصفة.

[29] -ورد في خصوص" اسم الله الأعظم "عدة أحاديث، أشهرها:

- **عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :[اسْمُ اللَّهِ الأَعظَمُ فِي سُوَرٍ مِنَ القُرآنِ ثَلَاثٍ: فِي " البَقَرَةِ " وَ " آلِ عِمرَانَ " وَ " طَهَ"] .رواه ابن ماجه (3856) وحسَّنه الألباني في "صحيح ابن ماجه."**
- **عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى] .رواه الترمذي (3544) وأبو داود (1495) والنسائي (1300) وابن ماجه (3858)، وصححه الألباني في " صحيح أبي داود."**
- **عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، فَقَالَ :لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ] .رواه الترمذي (3475) وأبو داود (1493) وابن ماجه (3857)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود."**

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله-: "وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك." " فتح الباري" (11 / 225).

- **عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :[اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] .رواه الترمذي (3478) وأبو داود (1496) وابن ماجه (3855). والحديث ضعيف، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف.**

واختلف أهل العلم في "اسم الله الأعظم" من حيث وجوده على أقوال:

- القول الأول: إنكار وجوده أصلاً! لاعتقادهم بعدم تفضيل اسم من أسماء الله تعالى على آخر، وقد تأول هؤلاء الأحاديث الواردة السابقة فحملوها على وجوه:

1-الوجه الأول: من قال بأن معنى "الأعظم" هو" العظيم "وأنه لا تفاضل بين أسماء الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله":- وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، ونسب ذلك بعضُهم لمالك؛ لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يُظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم: العظيم، وأن أسماء الله كلها عظيمة، وعبارة أبي جعفر الطبري: "اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي: أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم، ولا شيء أعظم منه"، فكأنه يقول: كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم، فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم." انتهى

2-الوجه الثاني: أن المراد بالأحاديث السابقة بيان مزيد ثواب من دعا بذلك الاسم.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله:-

"وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة في الأخبار: إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك، كما أطلق ذلك في القرآن، والمراد به: مزيد ثواب القارئ." انتهى

3-الوجه الثالث: أن المراد بالاسم الأعظم حالة يكون عليها الداعي، وهي تشمل كل من دعا الله تعالى بأي اسم من أسمائه، إن كان على تلك الحال.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله":-وقيل: المراد بالاسم الأعظم: كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى، فإن من تأتَّى له ذلك: استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجنيد، وعن غيرهما." انتهى

- القول الثاني: قول من قال بأن الله تعالى قد استأثر بعلم تحديد اسمه الأعظم، وأنه لم يُطلع عليه أحداً من خلقه.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله-: وقال آخرون: استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحداً من خلقه. انتهى .ينظر: "فتح الباري"، للحافظ ابن حجر (11 / 224).

- القول الثالث: قول من أثبت وجود اسم الله الأعظم وعيَّنه، وقد اختلف هؤلاء المعينون في الاسم الأعظم على أربعة عشر قولاً! وقد ساقها الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه "فتح الباري" (11 / 224، 225) حيث قال :" واثبته (أي الاسم الاعظم) اخرون معينا واضطربوا في ذلك وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشر قولا:

الاول: الاسم الاعظم هو.

نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف واحتج له بأن من أراد ان يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له أنت قلت كذا وانما يقول هو يقول تأدبا معه.

الثاني: الله .

لانه اسم لم يطلق على غيره ولانه الاصل في الاسماء الحسنى ومن ثم اضيفت إليه .

الثالث: الله الرحمن الرحيم .

ولعل مستنده ما أخرجه بن ماجة عن عائشة انها سألت النبي صلى الله عليه وسلم ان يعلمها الاسم الاعظم فلم يفعل فصلت ودعت اللهم اني ادعوك الله وادعوك الرحمن وادعوك الرحيم وادعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم اعلم الحديث وفيه انه صلى الله عليه وسلم قال لها انه لفي الاسماء التي دعوت بها قلت وسنده ضعيف وفي الاستدلال به نظر لا يخفى.

الرابع: الرحمن الرحيم الحي القيوم .

لما اخرج الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الاعظم في هاتين الايتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاتحة سورة آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم أخرجه أصحاب السنن الا النسائي وحسنه الترمذي وفي نسخة صححة وفيه نظر لانه من رواية شهر بن حوشب.

الخامس:الحي القيوم.

اخرج بن ماجة من حديث أبي امامة الاسم الاعظم في ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه قال القاسم الراوي عن أبي امامة التمسته منها فعرفت انه الحي القيوم وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية مالا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما .

السادس: الحنان المنان بديع السماوات والارض ذو الجلال والاكرام الحي القيوم ورد ذلك مجموعا في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه بن حبان السابع بديع السماوات والارض ذو الجلال والاكرام أخرجه أبو يعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي واثنى عليه قال كنت اسأل الله ان يريني الاسم الاعظم فأريته مكتوبا في الكواكب في السماء

الثامن :ذو الجلال الاكرام.

اخرج للترمذي من حديث معاذ بن جبل قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول يا ذا الجلال والاكرام فقال قد استجيب لك فسل واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الالهية لان في الجلال إشارة إلى جميع السلوب وفي الاكرام إشارة إلى جميع الاضافات .

التاسع :الله لا إله إلا هو الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث بريدة وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك .

العاشر: رب رب .

أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ اسم الله الاكبر رب رب واخرج بن أبي الدنيا عن عائشة إذا قال العبد يا رب يا

رب قال الله تعالى لبيك عبدي سل تعط رواه مرفوعا وموقوفا .

الحادي عشر : دعوة ذي النون

اخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه دعوة ذي النون في بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم قط الا استجاب الله له .

الثاني عشر نقل الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم فرأى في النوم "هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم".

الثالث عشر هو مخفي في الأسماء الحسنى، ويؤيده حديث عائشة المتقدم "لما دعت ببعض الأسماء وبالأسماء الحسنى. فقال لها صلى الله عليه وسلم: إنه لفي الأسماء التي دعوت بها".

الرابع عشر "كلمة التوحيد" نقله عياض تقدم قبل هذا. ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ الْمُفْرَدِ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ، وَأَدْخَلُ فِي الْبِدْعَةِ، وَأَقْرَبُ إلَى إضْلَالِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: يَا هُوَ يَا هُوَ، أَوْ: هُوَ هُوَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَّا إلَى مَا يُصَوِّرُهُ قَلْبُهُ، وَالْقَلْبُ قَدْ يَهْتَدِي وَقَدْ يَضِلُّ، وَقَدْ صَنَّفَ صَاحِبُ الْفُصُوصِ كِتَابًا سَمَّاهُ "كِتَابَ الْهُوَ" وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ}، مَعْنَاهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْمِ الَّذِي هُوَ "الْهُوَ" وَقِيلَ هَذَا وَإِنْ كَانَ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ، بَلْ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْيَنِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، حَتَّى قُلْتُ مَرَّةً لِبَعْضِ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، لَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قُلْتَهُ لَكُتِبَتْ (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هُوَ) مُنْفَصِلَةً. اهـ.

وقال أيضا: فَأَمَّا "الِاسْمُ الْمُفْرَدُ " مُظْهَرًا مِثْلَ: "اللَّهُ" "اللَّهُ ". أَوْ "مُضْمَرًا" مِثْلَ "هُوَ" "هُوَ". فَهَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ. وَلَا هُوَ مَأْثُورٌ أَيْضًا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَلَا عَنْ أَعْيَانِ الْأَئِمَّةِ الْمُقْتَدَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا لَهِجَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ ضُلَّالِ الْمُتَأَخِّرِينَ ... وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: " لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ " لِلْمُؤْمِنِينَ و "اللَّهُ" لِلْعَارِفِينَ و "هُوَ" لِلْمُحَقِّقِينَ، وَرُبَّمَا اقْتَصَرَ أَحَدُهُمْ فِي خَلْوَتِهِ أَوْ فِي جَمَاعَتِهِ عَلَى "اللَّهُ، اللَّهُ، اللَّهُ" أَوْ عَلَى "هُوَ" أَوْ "يَا هُوَ" أَوْ "لَا هُوَ إلَّا هُوَ" اهـ.

قال الشيخ الألباني رحمه الله:

واعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين اسم الله الأعظم على أربعة عشر قولاً، ساقها الحافظ في " الفتح "، وذكر لكل قول دليله، وأكثرها أدلتها من الأحاديث، وبعضها مجرد رأي لا يلتفت إليه، مثل القول الثاني عشر؛ فإن دليله: أن فلاناً سأل الله أن يعلّمه الاسم الأعظم، فرأى في النوم؛ هو الله، الله، الله، الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.!!

وتلك الأحاديث منها الصحيح، ولكنه ليس صريح الدلالة، ومنها الموقوف كهذا، ومنها الصريح الدلالة؛ وهو قسمان: قسم صحيح صريح، وهو حديث بريدة :الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ...إلخ، وقال الحافظ: " وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك "، وهو كما قال رحمه الله، وأقره الشوكاني في " تحفة الذاكرين" (ص 52)، وهو مخرج في " صحيح أبي داود " (1341.)

والقسم الآخر: صريح غير صحيح، بعضه مما صرح الحافظ بضعفه؛ كحديث القول الثالث عن عائشة في ابن ماجه (3859)، وهو في " ضعيف ابن ماجه " رقم (841)، وبعضه مما سكت عنه فلم يحسن ! كحديث القول الثامن من حديث معاذ بن جبل في الترمذي، وهو مخرج في " الضعيفة " برقم (4520.)
وهناك أحاديث أخرى صريحة لم يتعرض الحافظ لذكرها، ولكنها واهية، وهي مخرجة هناك برقم (2772 و 2773 و 2775 .)سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة " (13 / 279.)

أقرب الأقوال في اسم الله الأعظم

لعل الأقرب من تلك الأقوال أن الاسم الأعظم هو الله؛ فهو الاسم الجامع لله تعالى الذي يدل على جميع أسمائه وصفاته تعالى، وهو اسم لم يُطلق على أحد غير الله تعالى، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

- قال ابن القيم – رحمه الله-: اسم "الله" دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث.... " مدارج السالكين" (1 / 32.)

والدلالات الثلاث هي: المطابقة والتضمن واللزوم.

- وقال ابن أمير حاج الحنفي – رحمه الله:-عن محمد بن الحسن قال: سمعتُ أبا حنيفة رحمه الله يقول: اسم الله الأعظم هو "الله"، وبه قال الطحاوي وكثير من العلماء، وأكثر العارفين. وفي "التقرير والتحبير" (1 / 5.)
- وقال أبو البقاء الفتوحي الحنبلي – رحمه الله:-

فائدتان:

الأولى: أن اسم "الله" علم للذات، ومختص به، فيعم جميع أسمائه الحسنى.
الثانية: أنه اسم الله الأعظم عند أكثر أهل العلم الذي هو متصف بجميع المحامد. " شرح الكوكب المنير" (ص 4.)

- وقال الشربيني الشافعي – رحمه الله-: وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم، وقد ذكر في القرآن العزيز في ألفين وثلثمائة وستين موضعاً. " مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج" (1 / 88، 89.)
- وقال الشيخ عمر الأشقر – رحمه الله: والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنّه: (الله)، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال الرسول صلى الله عليه وسلم إنّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يُرجّح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (2697) سبعاً وتسعين وستمائة وألفين - حسب إحصاء المعجم المفهرس - وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات، في حين أنّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة، ويرجحه أيضاً: ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة. " العقيدة في الله" (ص 213).
ويأتي في الدرجة الثانية من القوة في كونه اسم الله الأعظم "الحي القيوم"، وهو قول طائفة من العلماء، ومنهم النووي، ورجحه الشيخ العثيمين رحمه الله.
اختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم ، على أربعة عشر قولاً ، ذكرها الحافظ ابن حجر في " فتح الباري. "
وقول أكثر أهل العلم أن " الله " هو الاسم الأعظم ، كما ذكرنا في جواب السؤال المتقدم ، وهو الراجح ، ويليه : " الحي القيوم " ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ": من أسمائه تعالى (الحي القيوم) وهو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى " انتهى من " مجموع فتاوى ورسائل العثيمين " (6/ 170).

ثانيا:

لا يعني ما تقدم أن مجرد معرفة اسم الله الأعظم والدعاء به يخرق العادة ، ويأتي بالمستحيلات ، ونحو ذلك ، وإنما المعنى : الحث على سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى ، والتأكيد على الاسم الجامع من أسمائه سبحانه ، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله ": اسم " الله " دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث. " انتهى من " مدارج السالكين " (1 / 32) .
والدلالات الثلاث هي : المطابقة والتضمن واللزوم.
فلما كان بهذه المثابة ، كان الدعاء به أفضل ، وكانت الإجابة أجدر ، ثم ينظر في دعوة السائل وما يقارنها ويحيط بها ، من الإخلاص وحضور القلب ، وعدم الاعتداء في الدعاء ، والإلحاح فيه ، وغير ذلك من أسباب الإجابة ، وموانعها أيضا.
وينظر جواب السؤال رقم : (5113) لمعرفة أسباب إجابة الدعاء ، وموانعها.

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الْحَشْر: 22 -24] ، فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كلها صفات لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ولله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} (فاضاف بقية الاسماء الى هذا الاسم دون بقية الاسماء الاخرى) وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الْإِسْرَاءِ: 110] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ(ولم يقل ان للرزاق او غيره من الاسماء) تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ" " متفق عليه فتأتي الاسماء بعده ولا يأتي بعد شيء منها وهو يتضمن صفة الإلهية وهي اوسع الصفات وهي صفة ترجع اليها بقية الصفات .
قال ابن كثير :" {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ[30] مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالِغَةِ، وَرَحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ [31]، وَفِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُفْهِم حِكَايَةَ الِاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ السَّلَفِ مَا

وإجابة الدعاء إنما تكون بإحدى ثلاث : إما أنْ يعجِّل الله له دعوتَه ، وإمَّا أنْ يدَّخر له من الخير مثلها ، وإما أنْ يصرف عنه من الشرّ مثلها.
..فلا يلزم من قوله [إذا دعي به أجاب] : أن يُعطى الداعي ما دعا به في الحال ؛ بل الأمر على ما تقدم : إما أن يعطى مسألته ، أو يدخر له من الخير ، أو يصرف عنه من الشر.
ثالثا:
ليست معرفة اسم الله الأعظم خاصة بالخواص من أولياء الله والصالحين من عباده ، بل قد يفتح باب المعرفة ، والسلوك في ذلك لآحاد المؤمنين ، وعامتهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم] . رواه الطبراني في "المعجم الكبير" (1647)، وصححه الألباني في " الصحيحة " (1803).
والمسلم يسأل الله حاجته ، ويلح عليه في السؤال ، ويحسن الظن به ، ويأخذ بأسباب الإجابة ، ويتوكل على ربه ، ويرضى بما قسم له ، ولا حرج في أن يدعو العبد ربه أن يفتح له باب المعرفة والدعاء باسمه الأعظم ، ويتقبل ذلك منه ؛ وإن كان ينبغي له ـ أيضا ـ أن يدعو الله بأسمائه الحسنى عامة ، ويتخير منها ما هو لائق بحاجته ومسألته ؛ وقد قال سبحانه : { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها } الأعراف/180 ، وقال عز وجل : { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء/110.
قال السعدي رحمه الله ": يقول تعالى لعباده: { ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ } أي: أيهما شئتم. { أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } أي: ليس له اسم غير حسن ، حتى ينهى عن دعائه به ، فأي اسم دعوتموه به ، حصل به المقصود ، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب ، مما يناسب ذلك الاسم. " انتهى من " تفسير السعدي " (ص 468).
فانشغل بالدعاء ، وألح في الطلب ، وتقرب إلى الله بالطاعة والذكر ، وخذ بأسباب إجابة الدعاء ، واحذر موانعها ، واسأل الله بأسمائه وصفاته : يستجب لك بإذن الله ، ويعطك سؤلك. (موقع الاسلام سؤال وجواب).

[30]- والاسماء المشتقة ابلغ من الاسماء الجامدة لأن كل اسم مشتق يتضمن صفة واما الاسم الجامد لا يتضمن صفة فاسماء الله تعالى اعلام وأوصاف .
قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مَا خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ" (رواه الترمذي وصححه الالباني). قَالَ: وَهَذَا نَصٌّ فِي الِاشْتِقَاقِ فَلَا مَعْنَى لِلْمُخَالَفَةِ وَالشِّقَاق".(وفيه رد على من زعم انه اسم عبراني)
قَالَ: وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ.
وصفات الله تعالى تؤخذ من اسمائه ولا عكس فلا يسمى الله تعالى الا بما سمى به نفسه لكن عند الكلام عن المعنى اللغوي يقال ان الرحمن مشتق من الرحمة والعزيز مشتق من العزة لكن عند الكلام عن التسمية فلا يقال ان الاسماء تؤخذ من الصفات وانما العكس هو الصحيح.
[31] ـ صيغة فعلان تدل على الامتلاء في اللغة العربية كما يقال غضبان وعطشان ورحيم بوزن فعيل ايضا يدل على المبالغة ولا يفهم من المبالغة المبالغة التي تعارف الناس عليها التي فيها الخروج عن الحقيقة فان ذلك محال في الفاظ الكتاب والسنة وانما يراد بهذه المغالغة ما يدل على الكثرة وعظم الشيء ونحوها في كل موضع بحسبه .

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْأَثَرِ، عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: وَالرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ.".

و{ الرحمن } هو ذو الرحمة الواسعة؛ و{ الرحيم } هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ{ الرحمن } وصفه؛ و{ الرحيم } فعله؛ ولو أنه جيء بـ "الرحمن" وحده، أو بـ "الرحيم" وحده لشمل الوصف، والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر { الرحمن } بالوصف؛ و{ الرحيم } بالفعل..

قال ابن الجوزي:" فذهب الجمهور إلى أنه مشتق من الرحمة ، مبني على المبالغة ، ومعناه : ذو الرحمة التي لا نظير له فيها . وبناء فعلان في كلامهم للمبالغة ، فانهم يقولون للتشديد الامتلاء : ملآن ، وللشديد الشبع : شبعان .

قال الخطابي : ف «الرحمن» : ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر .

و «الرحيم» : خاصٌ للمؤمنين . قال عز وجل : { وكان بالمؤمنين رحيما } [الأحزاب : 43] . والرحِيم : بمعنى الراحم".

- وقال الشنقيطي :"والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، و الرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وعلى هذا أكثر العلماء.

وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا...

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} .

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد :" أسماء الرب تعالى اسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه

تعالى ووصفه لا ينافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله من حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع يعني كقوله تعالى { الرحمن علم القرآن }[الرحمن 1] { الرحمن على العرش استوى }[طه 5] {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن }[الملك 20] وهذا شأن الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه منفردا غير تابع كمجيء اسمه الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله فإنه دال على صفة الالوهية ولم يجيء قط تابعا لغيره بل متبوعا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ولهذا لا تجيء هذه ونحوها مفردة بل تابعة

قال رحمه الله :"وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم وكأن الاول الوصف والثاني الفعل فالاول دال على أن الرحمن صفته أي صفة ذات له سبحانه والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته أي صفة فعل له سبحانه فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى و{كان بالمؤمنين رحيما}[الاحزاب 43] { إنه بهم رؤوف رحيم }[سورة التوبة 117] و لم يجيء قط رحمن بهم فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته قال رحمه الله وهذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها انتهى

ورحمة الله تعالى جل شأنه وتعالى سلطانه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضل والانعام وأما تفسيرها برقة في القلب تقتضي التفضل فالتفضل غايتها فيراد منها غايتها كما يقوله من يقوله من المتكلمة كالزمخشري في كشافه وغيره من النظار فهذا إنما يليق برحمة المخلوق لا برحمة الخالق تعالى وتقدس وبينهما بون ونظير ذلك العلم فإن حقيقة علمه تعالى القائمة به ليست مثل الحقيقة القائمة بالمخلوق بل نفس الارادة التي يرد بعضهم الرحمة إليها هي في حقه تعالى كارادة المخلوق إذ هي في المخلوق ميل القلب إلى الفعل أو الترك والله منزه عن ذلك وكذلك رد الزمخشري لها في حقه تعالى إلى الفعل بمعنى الإنعام والتفضيل فإن فعل العبد الاختياري إنما يكون لجلب نفع للفاعل أو دفع ضرر عنه ولا كذلك فعله تعالى فما فر منه أهل التأويل موجود في ما فروا إليه من المحذور وبهذا ظهر أنه لا حاجة إلى

دعوى المجاز في رحمته تعالى فإنه خلاف الاصل وهو إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على الحقيقة ولا تعذر هنا كما لا يخفى وأيضا معيار المجاز صحة نفيه كما إذا قيل زيد أسد أو بحر أو قمر لشجاعته أو كرمه أو حسنه فإنه يصح أن تقول زيد ليس بأسد أو ليس ببحر أو ليس بقمر وهذا مما لا خلاف فيه بينهم ولا يصح أن يقال الله ليس برحيم فلو كانت الرحمة مجازا في حقه تعالى لصح ذلك.
ولا ريب أن الرحمة صفة كمال وسائر الكتب السماوية مملوءة بذكرها وإطلاقها عليه تعالى ومن العجب أن تكون هذه الصفة العظيمة حقيقة في حق المخلوق مجاز في حق الخالق
والحاصل أن الصفة تارة تعتبر من حيث هي هي وتارة تعتبر من حيث قيامها به تعالى وتارة من حيث قيامها بغيره تعالى وليست الاعتبارات متماثلة إذ ليس كمثله شيئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله والكلام على الصفات فرع عن الكلام في الذات كما أنا نثبت ذاتا ليست كالذوات فلنثبت رحمة ليست كرحمة المخلوق
والرحمة المضافة إلى الله تعالى ليست نوعًا واحدًا، بل هي نوعان، فمنها رحمة ليست مخلوقة، تضاف إلى الله إضافة الصفة إلى الموصوف، ومنها رحمة مخلوقة تضاف إلى الله تعالى إضافة المفعول إلى فاعله، ومن هذا النوع الرحمة المذكورة في الحديث الذي نقله السائل.
قال ابن القيم في بدائع الفوائد :اعلم أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:
ـ أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.
ـ والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.
فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: "احتجت الجنة والنار " فذكر الحديث وفيه: "فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء" رواه مسلم، وأحمد. فهذه رحمة مخلوقة، مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة، وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض" رواه مسلم، والحاكم. وروى البخاري نحوه، ومنه قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً} ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديما وحديثا وهو قول الداعي: "اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك" وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف، وحكى فيه الكراهة، قال: "إن مستقر رحمته ذاته". وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة ..... فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهر جدًّا فلا يمتنع الدعاء بوجه، والله أعلم.
وهذا بخلاف قول الداعي: "يا حي، يا قيوم، برحمتك أستغيث" فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى، وهي متعلق الاستغاثة؛ فإنه لا يستغاث بمخلوق .اهـ.
وقال ابن كثير :" قَالَ: وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ[32]، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ كَنَدْمَانَ وَنَدِيمٍ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ، وَقِيلَ: لَيْسَ بِنَاءُ فَعْلَانَ كَفَعِيلٍ، فَإِنَّ فَعْلَانَ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مُبَالَغَةِ الْفِعْلِ نَحْوَ قَوْلِكَ: رَجُلٌ غَضْبَانُ، وَفَعِيلٌ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولُ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: الرَّحْمَنُ:

---

[32] **ـكما روى البخاري ومسلم واللفظ له عَنْ أَنَسٍ أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ـصلى الله عليه وسلمـ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ـصلى الله عليه وسلمـ لِعَلِيٍّ « اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ». قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا بِاسْمِ اللَّهِ فَمَا نَدْرِى مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ فَقَالَ « اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ». قَالُوا لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لاَتَّبَعْنَاكَ وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ـصلى الله عليه وسلمـ « اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ». فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ـصلى الله عليه وسلمـ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَكْتُبُ هَذَا قَالَ « نَعَمْ إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ».**

اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَالرَّحِيمُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الْأَحْزَابِ: 43](33) ..
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ زُفَر، سَمِعْتُ العَرْزَمِيّ يَقُولُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قَالَ: الرَّحْمَنُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، الرَّحِيمُ، قَالَ: بِالْمُؤْمِنِينَ. قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الْفُرْقَانِ: 59] وَقَالَ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5] فَذَكَرَ الِاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ(34)، وَقَالَ: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الْأَحْزَابِ: 43] فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ، قَالُوا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمُ خَاصَّةً بِالْمُؤْمِنِينَ، لَكِنْ جَاءَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا.
وَاسْمُهُ تَعَالَى الرَّحْمَنُ خَاصٌّ بِهِ لَمْ يُسم بِهِ غَيْرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}(35) وَقَالَ تَعَالَى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}(36) وَلَمَّا تَجَهْرَمَ (37) مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ وَتَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشُهِرَ بِهِ؛ فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ، فَصَارَ يُضرب بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكَذِبِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ، وَأَهْلِ الْوَبَرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَعْرَابِ.
وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الرَّحِيمَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنَ الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّهُ أَكَّدَ بِهِ، وَالتَّأْكِيدُ لَا يَكُونُ إِلَّا أَقْوَى مِنَ المؤكَّد، وَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّوْكِيدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ النَّعْتِ [بَعْدَ النَّعْتِ] وَلَا يَلْزَمُ فِيهِ مَا ذَكَرُوهُ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ تَقْدِيرُ اسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَوَصْفُهُ أَوَّلًا بِالرَّحْمَنِ الَّذِي مَنَعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِهِ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الْإِسْرَاءِ: 110] . وَإِنَّمَا تَجَهْرَمَ مُسَيْلِمَةُ الْيَمَامَةِ فِي التَّسَمِّي بِهِ وَلَمْ يُتَابِعْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الضَّلَالَةِ.
وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التَّوْبَةِ: 128] كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الْإِنْسَانِ: 2] .
وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، كَاسْمِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ وَالْخَالِقِ وَالرَّزَّاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ، وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّهُ أَخَصُّ وَأَعْرَفُ مِنَ الرَّحِيمِ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَخَصِّ فَالْأَخَصِّ.(38)

---

33 -لك قد يرد عليه ورود الاسم عاما في القران كقوله تعالى في سورة البقرة { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }

34 - أي استدل بالاقتران ان العرش اوسع المخلوقان قرن بالرحمة التي هي اوسع الصفات لكن هذا الاقتران لا يلزم منه ان الرحمن يدل على الرحمة العامة وان الرحيم يدل على الرحمة الخاصة.
والمسلم الذي يثبت الاسمين ويثبت انمها متضمنان معنى الرحمة فما ورد في الخلاف بين معنى الامين خطبه يسير ان شاء الله تعالى.

35 -لكن اسم الله تعالى مختص بالله لفظاً ومعنى فاسم الله وصفة الالوهية لا تجوز الا لله تعالى لكن اصم الرحمن مختص بالله لفظا وغي مختص به معنى بمعنى انه يمكت ان يتصف المخلوق بصفة الرحمة وان كان فرق بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق.
فرتب الاسماء فبدا باسم الله الذي يختص بالله لفظا ومعنى ثم بالرحمن الذي يختص بالله لفظا ولا يختص به معنى ثم الرحيم الذي لا يختص به تعالى لا في اللفظ ولا في المعنى .

36 ومثل هذا الاستعمال لاسم الرحمن لا تكاد تجده في اسم الله في بقية اسماء الله تعالى كالعزيز وغيره .

37 - معنى تجهرم: هاجم الاسم الكريم، ويحتمل أنها: تجهضم.
وهذا من غطرسته وكبريائه وجبروته وجرأته العظيمة.(عبدالعزيز الراجحي).

38 - اسماء الله تتفاضل ولا يعنى قولان بالتفاضل التنقص من الاسم المفضول فاسماء الله تعالى جميعا في غاية الحسن تعالى الله عن كل عيب ونقص كما السور تتفاضل فسورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن وآية الكرسي اعظم آيات الكتاب وكله القران كلام ربنا عز وجل .فالتفاضل انما في الكمالات لا في الكمال والنقص .

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الرَّحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً؛ فَهَلَّا اكْتُفِيَ بِهِ عَنِ الرَّحِيمِ؟ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ مَا مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَمَّا تَسَمَّى غَيْرُهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ، جِيءَ بِلَفْظِ الرَّحِيمِ لِيَقْطَعَ التَّوَهُّمَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءٍ. وَوَجَّهَهُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، حَتَّى رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإِسْرَاءِ: 110] ؛ وَلِهَذَا قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةَ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَلِي: "اكْتُبْ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} "، فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (6) ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ. وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: 60] ".

هل تصل البسملة بالحمد لله رب العالمين ؟

قال ابن كثير :" جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ حَرْفًا حَرْفًا {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ، فَقَرَأَ بَعْضُهُمْ كَذَلِكَ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْكُوفِيِّينَ وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَهَا بِقَوْلِهِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ".
قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}
{ الحمد } وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله .
فاذا خلا وصف الكمال عن المحبة او التعظيم فانه يسمى مدحا كمدح الشعراء للامراء رغبة للمال او خوفا منهم .
وقال ابن كثير في مقدمة تفسيره :" حَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ [39] فَقَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الْفَاتِحَةِ: 2-4] ، .. وَافْتَتَحَ خَلْقَه بِالْحَمْدِ، فَقَالَ تَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الْأَنْعَامِ: 1] ، وَاخْتَتَمَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ مَآلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزُّمَرِ: 75] ؛ وَلِهَذَا قَالَ [اللَّهُ] تَعَالَى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الْقَصَصِ: 70] ، كَمَا قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ: 1] .
فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَمَا هُوَ خَالِقٌ، هُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُصَلِّي: "اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ" ؛ وَلِهَذَا يُلْهَم أَهْلُ الْجَنَّةِ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمون النَّفَس، أَيْ يُسَبِّحُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَدَدَ أَنْفَاسِهِمْ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَوَالِي مِنَنه وَدَوَامِ إِحْسَانِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يُونُسَ: 9،10] ".

---

[39] ـ وهذا على اعتبار ان ترتيب السور توقيفي واما على قول ان ترتيب السور ليس توقيفياً كما هو الراجح فان الله تعالى لم يفتتح كتابه بالحمد ولم تكن الفاتحة من اول ما انزل على نبينا عليه افضل الصلاة والسلام.
واما من جهة النزول فقد قيل: إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة، ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة، وقيل {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر:1] كما في حديث جابر في الصحيح، وقيل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1]، وهذا هو الصحيح كما سيأتي تقريره في موضعه والله المستعان].
هذا هو الصواب كما ثبت في البخاري أن أول ما نزل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1]، ثم نزل بعد ذلك: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر:1 - 2]، فبنزول (اقرأ) صار صلى الله عليه وسلم نبياً، وبنزول (المدثر) صار رسولاً عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال العلماء: نبئ باقرأ، وأرسل بالمدثر.

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى {الْحَمْدُ لِلَّهِ} الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ (أي ان ابن جرير جعل الحمد والشكر شيئا واحدا)، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِه، بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ، فِي تَصْحِيحِ الْآلَاتِ لِطَاعَتِهِ، وَتَمْكِينِ جَوَارِحِ أَجْسَامِ الْمُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِه، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَغَذَّاهم بِهِ مِنْ نَعِيمِ الْعَيْشِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دَوَامِ الْخُلُودِ فِي دَارِ الْمُقَامِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَلِرَبِّنَا الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

[وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضِمْنِهِ(أي الحمد) أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}] (وهنا ايضا جعل الحمد والثناء شيئا واحدا).

قَالَ: وَقَدْ قِيلَ(وهي صيغة تضعيف): إِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، "ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْحُسْنَى ، وَقَوْلُهُ: الشُّكْرُ لِلَّهِ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِنِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي رَدِّ ذَلِكَ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ يُوقِعُونَ كُلًّا مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ مَكَانَ الْآخَرِ".

وروى الطبري :" عن الأسود بن سريع: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس شيءٌ أحبَّ إليه الحمد، من الله تعالى، ولذلك أثنى على نَفسه فقال: "الحمد لله" ([40]) .

قال أبو جعفر: ولا تَمانُع بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحُكْم ، لقول القائل: "الحمد لله شكرًا" - بالصحة. فقد تبيّن - إذْ كان ذلك عند جميعهم صحيحًا - أنّ الحمد لله قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضعَ الحمد. لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال "الحمد لله شكرًا"، فيُخْرِج من قول القائل "الحمد لله" مُصَدَّرَ: "أشكُرُ"، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد ، كان خطأ أن يُصَدَّرَ من الحمد غيرُ معناه وغير لفظه ".

وقال ابن عطية :" وحكي عن بعض الناس أنه قال الشكر ثناء على الله بأفعاله وأنعامه والحمد ثناء بأوصافه

قال القاضي أبو محمد وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد

واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك الحمد لله شكرا وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه

لأن قولك شكرا إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم ".

قال ابن كثير :"[وَقَدْ نَقَلَ السُّلَمِيُّ هَذَا الْمَذْهَبَ أَنَّهُمَا سَوَاءٌ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَابْنِ عَطَاءٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} كَلِمَةُ كُلِّ شَاكِرٍ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْقُرْطُبِيُّ لِابْنِ جَرِيرٍ بِصِحَّةِ قَوْلِ الْقَائِلِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} شُكْرًا] .

وَهَذَا الَّذِي ادَّعَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ اشْتُهِرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْقَوْلِ عَلَى الْمَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بِالْجَنَانِ وَاللِّسَانِ وَالْأَرْكَانِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا

وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا: أَيُّهُمَا أَعَمُّ، الْحَمْدُ أَوِ الشُّكْرُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ (أي ان الله يحمد على كل حال يحمد على صفاته العلية الذاتية وعلى صفاته المتعدية كاحسانه الى خلقه)، تَقُولُ: حَمِدته لِفُرُوسِيَّتِهِ وَحَمِدْتُهُ لِكَرَمِهِ. وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَوْلِ(مع مواطئه القلب)، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى

---

[40]- في الصحيحين عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَنَ وَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ.

الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ، لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ. هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَقَالَ أَبُو نَصْرٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَمَّاد الْجَوْهَرِيُّ: الْحَمْدُ نَقِيضُ الذَّمِّ، تقول: حَمِدت الرجل أحمده حمدًا وَمَحْمَدَةً ، فَهُوَ حَمِيدٌ وَمَحْمُودٌ، وَالتَّحْمِيدُ أَبْلَغُ مِنَ الْحَمْدِ، وَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ. وَقَالَ فِي الشُّكْرِ: هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلَاكَهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، يُقَالُ: شَكَرْتُهُ، وَشَكَرْتُ لَهُ. وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ .
وَأَمَّا الْمَدْحُ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْحَمْدِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلْحَيِّ وَلِلْمَيِّتِ وَلِلْجَمَادِ -أَيْضًا-كَمَا يُمْدَحُ الطَّعَامُ وَالْمَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَيَكُونُ قَبْلَ الْإِحْسَانِ وَبَعْدَهُ، وَعَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ وَاللَّازِمَةِ أَيْضًا فَهُوَ أَعَمُّ".
والمدح اذا كان مع عدم مواطئة القلب كان تملقا وتزلفا.
وبعضهم يضيف قيدا في الشكر ان الشكر يكون على الاوصاف الاختيارية واما المدح فيكون على الاوصاف الاختيارية وغير الاختيارية واللازمة والمتعدية .
قال ابن كثير :" ذِكْرُ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي الْحَمْدِ
قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ الْقَطِيعِيُّ، حَدَّثَنَا حَفْصٌ، عَنْ حَجَّاجٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَلِمْنا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَا الْحَمْدُ لِلَّهِ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: كَلِمَةٌ رَضِيَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ (وهذا يدل على ان السلف لم يكونوا يتعمقون في المعاني كما هو حاصل في من بعدهم) .
وَرَوَاهُ غَيْرُ أَبِي مَعْمَر، عَنْ حَفْصٍ، فَقَالَ: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْحَمْدُ لِلَّهِ؟ قَالَ عَلِيٌّ: كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا [اللَّهُ] لِنَفْسِهِ، وَرَضِيَهَا لِنَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ .
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدِ بْنِ جُدْعَان، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مِهْرَان، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةُ الشُّكْرِ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: شَكَرَنِي عَبْدِي. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.(
وَرَوَى -أَيْضًا-هُوَ وَابْنُ جَرِيرٍ، مِنْ حَدِيثِ بِشْرِ بْنِ عِمَارَةَ، عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ هُوَ الشُّكْرُ لِلَّهِ وَالِاسْتِخْذَاءُ لَهُ، وَالْإِقْرَارُ لَهُ بِنِعَمِهِ وَهِدَايَتِهِ وَابْتِدَائِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ". (فابن عباس لم يفرق بين الحمد والشكر فالمقصود الاشتغال بحمد الله وشكره وهذا هو الذي ينفع صاحبه).
وقال ابن كثير :"وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ خِرَاشٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ" . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.(وحسنه الالباني)
وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ" (وصححه الالباني في صحيح الجامع) . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَفِي نَوَادِرِ الْأُصُولِ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم قال: "لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، لَكَانَ الْحَمْدُ لِلَّهِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" (قال الالباني موضوع) . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: أَيْ لَكَانَ إِلْهَامُهُ الْحَمْدَ لِلَّهِ أَكْبَرَ نِعْمَةً عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ ثَوَابَ الْحَمْدِ لَا يَفْنَى وَنَعِيمُ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا} [الْكَهْفِ: 46] . وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ: "أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الْحَمْدُ كما ينبغي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَا يَا رَبِّ، إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللَّهُ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ-: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا يَا رَبِّ إِنَّهُ قَدْ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا" (وضعفه الالباني) . وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ طَائِفَةٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَوْلُ الْعَبْدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَفْضَلُ مِنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِاشْتِمَالِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى التَّوْحِيدِ مَعَ الْحَمْدِ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

أَفْضَلُ لِأَنَّهَا الْفَصْلُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهَا يُقَاتَلُ النَّاسُ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ فِي السُّنَنِ: "أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ" . وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا: "أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ". وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِاسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْحَمْدِ، وَصُنُوفِهِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ" الْحَدِيثَ " .

وقال الشنقيطي :" لم يذكر لحمده هنا ظرفا مكانيا ولا زمانيا. وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية: السماوات والأرض في قوله: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الآية 18]، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية: الدنيا والآخرة في قوله: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ} [الآية70]

والألف واللام في {الْحَمْدُ} لاستغراق جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به".([41])

---

[41] -، حمد الله عبادة عظيمة، حمد الله يعني رضا العبد عن أفعال ربه، حمد الله يعبر عن تسليم العبد لقضاء ربه.
وفي الحديث عن أبي مالك الأشعريّ- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الطّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السّماوات والأرض والصّلاة نور، والصّدقة برهان، والصّبر ضياء، والقرآن حجّة لك أو عليك. كلّ النّاس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها.رواه مسلم.
والحمد لله غراس الجنة وهي من الباقيات الصالحات قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي أمامة معلماً إياه فضل الحمد، قال: ألا أدلك على ما هو أكثر من ذكرك الله الليل مع النهار؟ تقول: الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله عدد ما في السموات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، وتسبح الله مثلهن، تعلمهن يا أيها المسلم، وعلمهن أولادك، وعلمهن عقبك من بعدك.
ولما تتجدد النعمة يجب على العبد أن يحمد ربه، وإذا علم العبد عظم الحمد بجانب النعمة، ما أسرع لسانه إلى الحمد، قال ﷺ: ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة، فالحمد لله على ما أنعم وعلى نعمه، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا } [سورة النحل18].
والحمد سبب لرضا الرب عن العبد، حمد العبد لربه سبب للرضا من الرب، فقال ﷺ: إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها، وقال ﷺ لما دخل عليه وبنت له تقضي، قال كلاماً عظيماً، وهذه القصة صحيحة رواها ابن عباس، قال: أخذ النبي ﷺ بنتاً له تقضي - تحتضر تموت- فاحتضنها فوضعها بين ثدييه، فماتت وهي بين ثدييه، فصاحت أم أيمن، فقيل: أتبكي عند رسول الله ﷺ؟ فقالت: أنت تبكي يا رسول الله، فقال: [لست أبكي إنما هي رحمة ذرفت عيناه]ﷺ، وقال: [إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تخرج من بين جنبيه وهو يحمد الله تعالى]رواه النسائي. حتى آخر لحظة من الدنيا والمؤمن تخرج نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله تعالى ، فهو يحمد الله على كل حال، حتى لو كانت روحه تخرج من بين جنبيه فهو لا يزال يحمد الله، لماذا؟ يحمد الله على الخروج من سجن الدنيا، ويحمد الله على قضائه فيه وأنه الآن يقبض روحه، فيحمد الله على كل شيء وعلى كل مكروه وعلى كل قضاء، حتى أن المؤمن يحمد الله وربه يقبض روحه من بين جنبيه، فيحمد الله على قضائه فيه، يحمد الله على لذة الحياة ونعمتها، الحياة التي أفناها في طاعة الله، فهو يحمد الله على أنه أعطاه النعمة التي حيي بها فذكر ربه وعبده.
ولو تأملت في هذه العبارات يا عبد الله لوجدت شاهداً على شدة حمد الرسول لربه وإخلاصه لله في هذا الحمد: كان إذا قرب إليه طعام قال: بسم الله، فإذا فرغ قال: اللهم إنك أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت واجتبيت، اللهم فلك الحمد على ما أعطيت، وكان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً، وكان إذا رفعت مائدته قال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا، وكان إذا أوى إلى فراشه ﷺ يتذكر نعمة الله عليه، هذا التذكر الذي نفتقده نحن وننساه نحن ونغفل عنه نحن، كان إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي، فيحمد ربه أنه كفاه وآواه I.
وكان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر الله على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر

قال ابن كثير :"{رَبِّ الْعَالَمِينَ} وَالرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.
[وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ، بَلْ بِالْإِضَافَةِ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ رَبُّ كَذَا، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ]" .
قال الطبري :" القول في تأويل قوله : { الْعَالَمِينَ } .
قاله أبو جعفر: والعالَمون جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه.
والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنس منها عالمُ زمانه. ولذلك جُمع فقيل: عالمون، وواحده جمعٌ، لكون عالم كلّ زمان من ذلك عالم ذلك الزمان. .... وهذا القول الذي قلناه، قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير، وهو معنى قول عامّة المفسرين.".
وقال ابن كثير :"وَالْعَالَمِينَ: جَمْعُ عَالَمٍ، [وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ] ، وَالْعَالَمُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَالْعَوَالِمُ أَصْنَافُ الْمَخْلُوقَاتِ [فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَكُلُّ قَرْنٍ مِنْهَا وَجِيلٍ يُسَمَّى عَالَمًا أَيْضًا .
قَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: الْعَالَمُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَعْقِلُ وَهُمُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَلَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ: عَالَمٌ(وهذا ليس محل اتفاق)، وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ كُلُّ مَا لَهُ رُوحٌ يَرْتَزِقُ (وهذا اعم).
وَقَالَ قَتَادَةُ: رَبُّ الْعَالَمِينَ، كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ.
وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ؛ كَقَوْلِهِ: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ(42) (قُلْتُ) : لِأَنَّهُ عِلْمٌ دَالٌّ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ".
وقال ابن عثيمين :" وقوله تعالى: { لله }: اللام للاختصاص، والاستحقاق.
وقوله تعالى: { رب العالمين }؛ "الرب" : هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور".
وقال الشنقيطي :"وقوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} الآية [26/23،24]واشتقاق العالم من العلامة، لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه متصفا بصفات الكمال والجلال".
قوله تعالى: { مالك يوم الدين }

عبده وهزم الأحزاب وحده، وفي التلبية ماذا يقول الحاج والمعتمر؟ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك .
42 - وقال بعض اهل العلم انه مشتق من العلم ولذلك قَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: الْعَالَمُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَعْقِلُ وَهُمُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَلَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ: عَالَمٌ.

صفة لـ{ الله }؛ و{ يوم الدين } هو يوم القيامة؛ و{يوم الدين }يوم الجزاء وهو القيامة و "الدين" تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] ، ويقال: "كما تدين تدان"، أي كما تعمل تُجازى..
-(وفي قوله تعالى: { مالك } قراءة سبعية: { مَلِك}، و "الملك" أخص من "المالك"..
وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكاً، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكاً، ولا يكون ملكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ ملِك..
فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟
فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: {لمن الملك اليوم} [غافر: 16] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: {لله الواحد القهار} [غافر: 16] ؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك رباً للسموات، والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم..
قال ابن كثير :" {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) }
قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: {مَلِك يَوْمِ الدِّينِ} وَقَرَأَ آخَرُونَ: {مَالِكِ} . وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ.([43])

---

[43] -قال ابو حيان :" مالِكِ قَرَأَ مَالِكِ عَلَى وَزْنِ فَاعِلٍ بِالْخَفْضِ، عَاصِمٌ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ فِي اخْتِيَارِهِ، وَيَعْقُوبُ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْعَشَرَةِ إِلَّا طَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَقِرَاءَةُ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ: أُبَيٌّ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَمُعَاذٌ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالتَّابِعِينَ مِنْهُمْ: قَتَادَةُ وَالْأَعْمَشُ.
وَقَرَأَ مَلِكِ عَلَى وَزْنِ فَعِلٍ بِالْخَفْضِ بَاقِي السَّبْعَةِ، وَزَيْدٌ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَابْنُ عُمَرَ، وَالْمِسْوَرُ، وَكَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.
وَقَرَأَ مَلْكِ عَلَى وَزْنِ سَهْلٍ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَعَاصِمٌ الْجَحْدَرِيُّ، وَرَوَاهَا الْجُعْفِيُّ، وَعَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَهِيَ لُغَةُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ. و
قَرَأَ مَلِكِي بِإِشْبَاعِ كَسْرَةِ الْكَافِ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ وَرْشٍ، عَنْ نَافِعٍ.
وَقَرَأَ مِلْكِ عَلَى وَزْنِ عِجْلٍ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وَعَطِيَّةُ، ونسبها ابن عطية إلى أَبِي حَيَاةَ.
وَقَالَ صَاحِبُ اللَّوَامِحِ: قَرَأَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَأَبُو نَوْفَلٍ عُمَرُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ أَبِي عَدِيٍّ مَلِكَ يَوْمَ الدِّينِ، بِنَصْبِ الْكَافِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ، وَجَاءَ كَذَلِكَ عَنْ أَبِي حَيَاةَ، انْتَهَى.
وَقَرَأَ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ رَفَعَ الْكَافَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَائِشَةُ، وَمُورِقٌ الْعِجْلِيّ.
وَقَرَأَ مَلَكَ فِعْلًا مَاضِيًا أَبُو حَيَاةَ، وَأَبُو حَنِيفَةَ، وَجُبَيْرُ بْنُ مَطْعِمٍ، وَأَبُو عَاصِمٍ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ، وَأَبُو الْمَحْشَرِ عَاصِمُ بْنُ مَيْمُونٍ الْجَحْدَرِيُّ، فَيَنْصِبُونَ الْيَوْمَ. وَذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَنَّ هَذِهِ قِرَاءَةُ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، وَالْحَسَنِ وَعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.
وَقَرَأَ مَالِكَ بِنَصْبِ الْكَافِ الْأَعْمَشُ، وَابْنُ السَّمَيْفَعِ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ قَاضِي الْهِنْدِ. وَذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَنَّهَا قِرَاءَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَأَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، وَأَبِي عَبْدِ الْمَلِكِ الشَّامِيّ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ عَنِ الْيَمَانِ مَلِكًا بِالنَّصْبِ وَالتَّنْوِينِ.
وَقَرَأَ مَالِكٌ بِرَفْعِ الْكَافِ وَالتَّنْوِينِ عَوْنٌ الْعُقَيْلِيّ، وَرُوِيَتْ عَنْ خَلَفِ بْنِ هِشَامٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَأَبِي حَاتِمٍ، وَبِنَصْبِ الْيَوْمِ.
وَقَرَأَ مَالِكُ يَوْمِ بِالرَّفْعِ وَالْإِضَافَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَبُو حَيَاةَ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِخِلَافٍ عَنْهُ، وَنَسَبَهَا صَاحِبُ اللَّوَامِحِ إِلَى أَبِي رَوْحٍ عَوْنِ بْنِ أَبِي شَدَّادٍ الْعُقَيْلِيّ، سَاكِنِ الْبَصْرَةِ.
وَقَرَأَ مَلِيكِ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ أُبَيٌّ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَبُو رَجَاءَ الْعُطَارِدِيُّ. وَقَرَأَ مَالِك بِالْإِمَالَةِ الْبَلِيغَةِ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، وَأَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ، وَبَيْنَ بَيْنَ قُتَيْبَةُ بْنُ مِهْرَانَ، عَنِ الْكِسَائِيّ. وَجَهِلَ النَّقَلَةُ، أَعْنِي فِي قِرَاءَةِ الْإِمَالَةِ، أَبُو عَلِيّ الْفَارِسِيُّ
فَقَالَ: لَمْ يُمِلْ أَحَدٌ من القراء أَلِفَ مَالِك، وَذَلِكَ جَائِزٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُقْرَأُ بِمَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِذَلِكَ أَثَرٌ مُسْتَفِيضٌ. وذكر أيضا أنه قرىء فِي الشَّاذِّ مَلَّاكِ بِالْأَلِفِ وَالتَّشْدِيدِ لِلَّامِ وَكَسْرِ الْكَافِ. فَهَذِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ قِرَاءَةً، بَعْضُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْمَلْكِ، وَبَعْضُهَا إِلَى الْمِلْكِ،

قَالَ اللُّغَوِيُّونَ: وَهُمَا رَاجِعَانِ إِلَى الْمَلْكِ، وَهُوَ الرَّبْطُ، وَمِنْهُ مَلْكُ الْعَجِينِ. وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ:
مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائِمًا مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

[وَيُقَالُ: مَلِيكٌ أَيْضًا، وَأَشْبَعَ نَافِعٌ كَسْرَةَ الْكَافِ فَقَرَأَ: "مَلِكِي يَوْمِ الدِّينِ" وَقَدْ رَجَّحَ كُلًّا مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ مُرَجِّحُونَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَكِلَاهُمَا صَحِيحَةٌ حَسَنَةٌ، وَرَجَّحَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَلِكِ؛ لِأَنَّهَا قِرَاءَةُ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ وَلِقَوْلِهِ: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} وَقَوْلُهُ: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} وَحُكِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَرَأَ "مَلَكَ يومَ الدِّينِ" عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ وَفَاعِلٌ وَمَفْعُولٌ، وَهَذَا شَاذٌّ غَرِيبٌ جِدًّا] . وَقَدْ رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي دَاوُدَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا غَرِيبًا حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأذْرَمِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ الْفَضْلِ، عَنْ أَبِي الْمُطَرِّفِ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَمُعَاوِيَةَ وَابْنَهُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ كَانُوا يَقْرَءُونَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ "مَلِكِ" مَرْوَانُ . قُلْتُ: مَرْوَانُ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِصِحَّةِ مَا قَرَأَهُ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ ابْنُ شِهَابٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر أو البلد ونحوه(المحرر الوجيز)

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَوْرَدَهَا ابْنُ مَرْدُويه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَؤُهَا: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} (44) وَمَالِكُ مَأْخُوذٌ مِنَ الملْك، كَمَا قَالَ: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}

وَالْإِمْلَاكُ رَبْطُ عَقْدِ النِّكَاحِ، وَمِنْ مُلَحِ هَذِهِ الْمَادَّةِ أَنَّ جَمِيعَ تَقَالِيبِهَا السِّتَّةِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَكُلُّهَا رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ، فَبَيْنَهَا كُلِّهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ، وَهَذَا يُسَمَّى بِالِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ، وَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ غَيْرُ أَبِي الْفَتْحِ. وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ يَأْنَسُ بِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ وَتِلْكَ التَّقَالِيبُ: مَلَكَ، مَكَلَ، كَمْكَلَ، لَكَمَ، كَمَلَ، كَلَمَ. وَزَعَمَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ أَنَّ تَقْلِيبَ كَمْكَلَ مُهْمَلٌ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ بِدَلِيلِ مَا أَنْشَدَ الْفَرَّاءُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَلَمَّا رَآنِي قَدْ حَمَمْتُ ارْتِحَالَهُ ... تَمَلَّكَ لَوْ يُجْدِي عَلَيْهِ التَّمَلُّكُ

وَالْمُلْكُ هُوَ الْقَهْرُ وَالتَّسْلِيطُ عَلَى مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِاسْتِحْقَاقٍ وَبِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ. وَالْمَلْكُ هُوَ الْقَهْرُ عَلَى مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَمَنْ لَا تَتَأَتَّى مِنْهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ بِاسْتِحْقَاقٍ، فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَلَكَ مِنَ الْمُلْكِ، بِضَمِّ الْمِيمِ، وَمَالِكِ مِنَ الْمِلْكِ، بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَزَعَمُوا أَنَّ ضَمَّ الْمِيمِ لُغَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى. وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْبَغْدَادِيِّينَ لِي فِي هَذَا الْوَادِي مُلْكٌ وَمِلْكٌ بِمَعْنًى وَاحِدٍ.".

وقال الطبري :" ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب، أن المَلِك من "المُلْك" التأويلُ الأول، وهي قراءةٌ من قرأ "مَلِكِ" بمعنى "المُلك". لأن في الإقرار له بالانفراد بالمُلك، إيجابًا لانفراده بالمِلْك، وفضيلة زيادة المِلك على المالك (1) ، إذْ كان معلومًا أن لا مَلِك إلا وهو مالكٌ، وقد يكون المالكُ لا ملكًا .

وبعدُ، فإن الله جلّ ذكره، قد أخبر عبادَه في الآية التي قبل قوله(مَلِكِ يوم الدين) أنه مالكُ جميع العالمين وسيِّدهم، ومُصلحُهم، والناظرُ لهم، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة، بقوله:(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

وإذْ كان جلّ ذكره قد أنبأهم عن مِلْكه

إيَّاهم كذلك بقوله:(ربِّ العالمين)، فأولى الصّفات من صفاته جل ذكره أن يَتْبَع ذلك ما لم يحْوِه قوله(ربِّ العالمين الرَّحمن الرحيم)، مع قرب ما بين الآيتين من المواصَلة والمجاورة، إذْ كانت حكمتُه الحكمةَ التي لا تشبهها حِكمةٌ، وكان في إعادة وصفه جلّ ذكره بأنه(مالِك يوم الدين)، إعادةُ ما قد مضى من وصفه به في قوله(ربِّ العالمين)، مع تقارب الآيتين وتجاوز الصفتين. وكان في إعادة ذلك تكرارُ ألفاظ مختلفة بمعان متفقة، لا تفيد سامع ما كُرِّر منه فائدةً به إليها حاجة. والذي لم يحْوِه من صفاته جلّ ذكره ما قبل قوله:(مالك يوم الدين)، المعنى الذي في قوله:(مَلِك يوم الدين)، وهو وصْفه بأنه المِلك.

فبيّن إذًا أن أولى القراءتين بالصواب،

وأحقّ التأويلين بالكتاب، قراءة من قرأه(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، بمعنى إخلاص المُلك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ(مالك يوم الدين) الذي بمعنى أنه يملك الحكمَ بينهم وفصلَ القضاء، متفرّدًا به دون سائر خلقه".

44 - وروى ابو داود عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ شَكَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قُحُوطَ الْمَطَرِ فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِى الْمُصَلَّى وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَكَبَّرَ -صلى الله عليه وسلم- وَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَالَ « إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ ». ثُمَّ قَالَ « (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْغَنِىُّ وَنَحْنُ

[مَرْيَمَ: 40] وَقَالَ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ} [النَّاسِ: 1، 2] وَمَلِكٌ: مَأْخُوذٌ مِنَ الْمُلْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غَافِرٍ: 16] وَقَالَ: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} [الْأَنْعَامِ: 73] وَقَالَ: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: 26] .

وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النَّبَأِ: 38] وَقَالَ تَعَالَى: {وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا} [طه: 108] ، وَقَالَ: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هُودٍ: 105] .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} يَقُولُ: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمِلْكِهِمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: وَيَوْمُ الدِّينِ يَوْمُ الْحِسَابِ لِلْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُدِينُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى تَفْسِيرِ {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى إِقَامَتِهِ، ثُمَّ شَرَعَ يُضْعِفُهُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ وَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّ كُلًّا مِنَ الْقَائِلِينَ بِهَذَا وَبِمَا قَبْلَهُ يَعْتَرِفُ بِصِحَّةِ الْقَوْلِ الْآخَرِ، وَلَا يُنْكِرُهُ، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ أَدَلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا، كَمَا قَالَ: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} [الْفُرْقَانِ: 26] وَالْقَوْلُ الثَّانِي يُشْبِهُ قَوْلَهُ: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ} ، [الْأَنْعَامِ: 73] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.([45])

الْفُقَرَاءُ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلاَغًا إِلَى حِينٍ ». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِى الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبْطَيْهِ ثُمَّ حَوَّلَ عَلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَّبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ -صلى الله عليه وسلم- حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَقَالَ « أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنِّى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَقْرَءُونَ (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ حُجَّةٌ لَهُمْ.وقال الالباني حديث حسن .

[45] ـ قال ابن عطية :" واحتج من قرأ ملك بأن لفظة ملك أعم من لفظة مالك إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا والملك الذي يدبر المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك

وتتابع المفسرون على سرد هذه الحجة وهي عندي غير لازمة لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه الملك

فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك فالمالك أبلغ مثال ذلك أن نقدر آهلة عظيمة ثم نقدر لها رجلا يملكها أجمع أو رجلا هو ملكها فقط إنما يملك التدبير والأحكام فلا شك أن المالك أبلغ تصرفا وأعظم إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها كما لكل أحد في ملكه ثم عنده زيادة التملك وملك الله تعال ليوم الدين هو على هذا الحد فهو مالكه وملكه والقراءتان حسنتان

وحكى أبو علي في حجة من قرأ مالك يوم الدين أن أول من قرأ ملك يوم الدين مروان بن الحكم وأنه قد يدخل في المالك ما لا يدخل في الملك فيقال مالك الدنانير والدراهم والطير والبهائم ولا يقال ملكها ومالك في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء وملك الحكم فيها وقد قال الله تعالى " قل اللهم مالك الملك "

قال أبو بكر الأخبار الواردة تبطل أن أول من قرأ ملك يوم الدين مروان بن الحكم بل القراءة بذلك أوسع ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر أو البلد ونحوه

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه وفي الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما قرؤوا ملك يوم الدين بغير ألف وفيه أيضا أنهم قرؤوا مالك يوم الدين بألف

قال أبو بكر والاختيار عندي ملك يوم الدين لأن الملك والملك يجمعهما معنى واحد وهو الشد والربط كما قالوا ملكت العجين أي شددته إلى غير ذلك من الأمثلة والملك أفخم وأدخل في المدح والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه فالمعنى أنه ملك الملوك في ذلك اليوم لا ملك لغيره

قال والوجه لمن قرأ مالك أن يقول إن المعنى أن الله تعالى يملك ذلك اليوم أن يأتي به كما يملك سائر الأيام لكن خصصه بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه ".

والمَلِك فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ} وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ وَلَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِيهِمَا عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ " وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} ، {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ} {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: (مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ)[46] .

وَالدِّينُ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} ، وَقَالَ: {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} أَيْ مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ، وَفِي الْحَدِيثِ: "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ" أَيْ حَاسَبَ نَفْسَهُ لِنَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَأَهَّبُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} ".

وقال الشيخ خالد السبت :" ومُلك الله -تبارك وتعالى- وملكوته هو سلطانه، وأصل هذه المادة المَلْك يرجع إلى الربط والشد، وهذا الربط والشد يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة, ثم قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشيء مُلكاً؛ لأن يده فيه قوية صحيحة، مَلَك فلانٌ هذا المال، مَلَك فلانٌ هذا العقار, أو هذه الأرض, مَلَك

---

[46] - قال الشيخ وليد السعيدان :" ومن هذه البراهين : الاستدلال على (ألوهية الله تعالى) بأنه المالك لكل شيء والذي لا يشذ عن ملكه شيء ، قال تعالى " تبارك الذي بيده الملك " وقال تعالى " وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا " وقال تعالى " ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " وقال تعالى " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير " وقال تعالى " ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء " ولذلك فإن من جملة ما أنكره الله على من يعبد غيره بأنه لا يملك مثقال ذرة ، فقال تعالى " أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب " وقال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " ولما كانت النفوس مجبولة على الاغترار بصاحب الملك جعل فرعون ملكه الذي آتاه الله تعالى طريقا ليغر الناس بأنه هو الإله ، فقال الله عنه " قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين " فلأن الله تعالى هو مالك الملك وحده فهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له ، فالله تعالى له الملك المطلق من كل وجه ، فلا يخرج شيء عن أن يكون مملوكا لله تعالى ، فإن قيل : أوليس المخلوق يملك ؟ فأقول نعم ، ولكن بين ملك الله تعالى وملك المخلوق من الفرق كما بين السماء والأرض ، وبيان ذلك من وجوه :

منها : أن ملك الله تعالى ملك لا أول له فهو المالك لكل شيء في الأزل ، وأما ملك المخلوق فهو ملك حادث بعد أن لم يكن ، فأنت تملك اليوم ما لم تكن تملكه بالأمس ، وتملك غدا ما لم تكن تملكه اليوم ، وهكذا، وهذا واضح .

ومنها : أن ملك الله تعالى أبدي لا نهاية له ، فلا ينقطع ملكه للأشياء جل وعلا ، وأما ملك المخلوق فإنه ملك زائل ، إما بالبيع أو بالهبة أو بالصدقة أو بالموت ونحو ذلك .

ومنها : أن ملك الله تعالى عام شامل لكل الأشياء ، فالله تعالى له الملك المطلق وأما ملك المخلوق فإنه ملك محصور محدود وهذا معلوم فأنت لا تملك ما يملكه الآخرون فالمخلوق له مطلق الملك ، أي بعضه فقط ، وأما الله تعالى فله الملك المطلق ، أي كل ما يملك فهو داخل تحت ملكه جل وعلا ، وهنا لطيفة : وهي أن الملك - بضم الميم - أبلغ من الملك - بكسرها - وذلك أن الملك - بالضم - معناه ملك الأشياء وملك مالكيها ، فالله تعالى مالك للشيء ومالك لمن يملك هذا الشيء ، فالمملوك ومالكه كلهم يدخلون تحت ملكيته جل وعلا ، وأما الملك - بالكسر - فهو ملك للشيء فقط .

ومنها : أن الخالق جل وعلا له أن يتصرف في ملكه كما يشاء جل وعلا ، فله جل وعلا التصرف المطلق ، وأما المخلوق فليس له حرية التصرف في ملكه ، بل لا يجوز له أن يتصرف في ملكه إلا في حدود ما أقره الشرع فقط .

والمقصود أن تعرف معرفة اليقين أن المالك لكل شيء هو الله تعالى ، وأن الملك لكل شيء هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وعليه فالله هو وحده المستحق للعبادة لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكوته "(القول المفيد في شرح قاعدة التوحيد).

فلان هذا الجهاز، وذلك إذا كانت يده عليه صحيحة قوية، يعني: لم يكن أخذه بغير حق، ما غصبه من آخر, وهو متمكن منه، أما إذا صار ذلك إليه لكن لم يمكَّن منه فإنه لا يقال: إنه ملكه.
فالمُلك في اللغة يدل على قوة في الشيء وصحة، والمالك للشيء متوثق منه، ومُحكِم لأمره أن يخرج عن يده، فلا يُمكِّن أحداً من إدخال يد معه، ولا التصرف فيه من غير إذنه.
أما المعنى في حق الله -تبارك وتعالى- فيمكن أن يقال: المَلِك هو المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها، بلا ممانعة, ولا مدافعة, فهذه عبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله-.
ويكون بهذا الاعتبار قد جمع بين المعنيين: التصرف المطلق، مع التملك لجميع الأشياء, يعني: أنه ملكها, ويتصرف فيها تصرفاً مطلقاً، هذان معنيان، فالخلق كلهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف بهم، المدبر لهم كما يشاء, وقدرته نافذة فيهم، وله السلطان التام على خلقه أجمعين جل جلاله، وتقدست أسماؤه-، فهو الذي أبدع الخلق، ولا يكون أحد أحق بالتصرف فيما أبدع من الله جل جلاله ، فالملك له وحده.
والمَلِك هو المستغني عن غيره، وأما غيره فهو محتاج إليه، هذا هو المَلِك الحقيقي الذي له المُلك الكامل، وسيأتي في الكلام على مُلك الآدميين، ملك المخلوقين، فهو ملك ناقص.
ولذلك فإن ملوك الدنيا لا يقوم ملكهم إلا بالأعوان, ومن ثَمّ فإنهم مفتقرون إليهم، وهذا الافتقار هو نوع عبودية لمن لا يتحقق, ولا يقوم, ولا يثبت سلطانه إلا به.
يقول: ولذا تجد الرجل في الظاهر ملكاً مطاعاً، وهو في الباطن قد يكون عبداً لمن لا يقوم ملكه إلا به, ولربما استعبدته امرأة يحبها، أو استعبده المال، أو استعبدته شهواته وأهواؤه.
فالمَلِك هو المستغني عن غيره، وقد احتاج إليه غيره, والله -تبارك وتعالى- هو المالك لكل الخلائق والأكوان، والمتصرف فيها، فهو وحده ذو الملك والسلطان، قد استغنى بذاته جل جلاله ، وصفاته، وأفعاله عن كل مخلوق، ولا يوجد مخلوق إلا وهو في غاية الافتقار إليه.
وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن حقيقة المُلك لا تتم إلا بالعطاء، والمنع، والإكرام، والإهانة، والإثابة, والعقوبة، والغضب، والرضا، والتولية، والعزل، وإعزاز من يليق به العز، وإذلال من يليق به الذل، { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26].
فهو عز وجل الموصوف بصفة الملك، وهذه الصفة -كما سيتضح- تنتظم أوصافاً كثيرة متعددة من صفات العظمة, والكبرياء, والقهر, والتدبير، فهو الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي، والسفلي، فكلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.
فربنا ومليكنا هو المَلِك الحق الذي يتضاءل كل مُلك دون ملكه, وهو الإله الحق، وهو الرب الحق، فالله خلق الخلق بربوبيته, وقهرهم بملكه واستعبدهم بإلهيته.
ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ }[الناس: 1]، فذكر رب الناس، ثم قال: {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس: 2]، ثم قال:{ إِلَهِ النَّاسِ }[الناس: 3]، فهذه الإضافات الثلاث كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- قد اشتملت على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني الأسماء الحسنى، فالرب هو القادر الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم, العليم, السميع, البصير, المحسن, المنعم, الجواد, المعطي، المانع, الضار، النافع, المقدم, المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء, ويسعد من يشاء, ويشقي من يشاء, ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.
وأما المَلِك فهو الآمر، الناهي، المعز، المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب, ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز, الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض,

الرافع, المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير, الحسيب, المتعالي, ومالك الملك, والمقسط(بدائع الفوائد (249/2)).

والمقصود: أن الله -تبارك وتعالى- يقرر هذا المعنى, وأن الملك المطلق له وحده لا شريك له:{ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [الشورى: 49]،{ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[الزمر: 44.].{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الملك: 1]،{ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الحديد: 2.].

فذكر -تبارك وتعالى- ملكه العظيم، وقدرته التامة في ملكه، وأنه لا يعجزه شيء، فهذا الاسم الكريم، "المَلِك" من الأسماء الأصول التي يدخل تحتها كثير من الأسماء والصفات؛ لأن هذا المُلك الذي يكون بهذه الصفة لا يكون إلا إذا تحققت تلك الأوصاف الكاملة، والمعاني العظيمة، والقدرة الباهرة، والخلق، والعظمة، والجبروت، والغنى، وما إلى ذلك من المعاني؛ لأن المَلِك ينتظم العزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، فهو صاحب السلطان القاهر، والمشيئة النافذة، الذي يصرف أمور عباده كما يجب.

وأما المالك فالله -تبارك وتعالى- هو مالك الأشياء كلها، ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء؛ لأن المالك في كلام العرب هو المتصرف في الشيء، القادر عليه، والله -تبارك وتعالى- قادر على الأشياء التي خلقها، ويخلقها، ولا يمتنع عليه منها شيء.

وأما المليك فإنه أبلغ من المَلِك؛ لأنه على وزن فعيل, فإن ما كان على هذه الزنة يدل على المبالغة، تقول: سميع, بصير, رحيم, وما إلى ذلك.

خلاصة الفرق بين الملك والمالك؟

الأول: أن المَلِك هو النافذ الأمر في ملكه، الذي ينفذ أمره في ملكه، وليس كل مالك ينفذ أمره، أو تصرفه فيما يملكه، الصبي يملك, والمجنون يملك, ولكن التصرف النافذ يكون للولي، مع أن الولي يتصرف، ولكنه لا يملك هذا المال الذي يتصرف فيه، إنما يتصرف فيه بالنيابة, لكنه لا يملكه، فالملك أعم من المالك بهذا الاعتبار، وهذا المعنى ذكره الزجاج(تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: 30.))

الثاني: أن الملك هو التام الملك، الجامع لأصناف المملوكات، وأما المالك فهو خاص المُلك.

تقول: أنا مالك لهذه الساعة، لكن هل أنا ملك؟ لا.

فهذا تملك خاص، وأما الملك فإن هذه اللفظة تدل على معنى أوسع من مجرد المالك، هو التام الملك، الجامع لأصناف المملوكات، لكن من ملك شيئاً معيناً، ملك سيارة لا يقال له: ملك, ملك داراً لا يقال له: ملك، ملك كتاباً، لا يقال: إنه ملك، ولكن الذي يملك صنوف المملوكات, ويتصرف فيها وينفذ أمره فيها هذا هو الملك، وهذا ذكره الخطابي(شأن الدعاء (39/1.)

الثالث: وهو أن الملك هو المتصرف بالأمر والنهي؛ لأن معنى المُلك -كما ذكر بعضهم- هو التصرف المطلق, فأنت حينما تريد أن تتصرف فيما تملكه فهناك قيود، إذا أردت أن تبني في أرضك، هل تستطيع أن تفعل كما تشاء؟ لابد من قيود تتقيد بها, إذا كنت تركب سيارتك, هل تستطيع أن تفعل فيها ما تشاء؟ الجواب: لا.

فالملك هو المتصرف بالأمر والنهي، وذلك يختص بسياسة العقلاء, ولهذا يقال: {مَلِكِ النَّاسِ }[الناس: 2]، ولا يقال: ملك الأشياء, ما يقال: فلان ملك الأجهزة الفلانية, ولا يقال: فلان ملك السيارات الفلانية, وإنما يقال: مالك، والله عز وجل هو الملك الحق:{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ }[المؤمنون: 116].

الرابع:أن الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في خلقه بقوله وأمره, والمالك هو المتصرف بفعله, الملك يتصرف بفعله وأمره، والله -تبارك وتعالى- هو مالك الملك, فهو المتصرف بفعله

وأمره, أمره نافذ في الخليقة, وكذلك يتصرف فيهم كما يشاء؛ لأنهم عبيده ومماليكه, وهذا المعنى ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-(بدائع الفوائد (247/2).
الخامس: الملك هو الذي يحكم ولا يملك, وأما المالك فهو الذي يملك ولا يحكم، والله -تبارك وتعالى- مالك وملك, وبناءً عليه كما سيأتي في الكلام على الأبلغ من هذه الأسماء يكون لكل واحد من هذه الأسماء مزية على الآخر, لكن على الوجوه الأخرى التي ذكرناها قبله يكون الملك أبلغ من المالك.

أيهما أبلغ الملك أم المالك؟

ذكر بعض أهل العلم جملة من الأقوال في ذلك, بعضهم يقول: إن الملك أعم وأبلغ، فكل ملك مالك, وليس كل مالك ملكًا, وقالوا: لأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، وهذا قال به جماعة كأبي عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله-, والمبرد وآخرين(فتح القدير للشوكاني (26/1).
وبعضهم يقول: إن المالك أبلغ من الملك؛ لأنه يكون مالكاً للناس وغيرهم، فالمالك يقولون: أبلغ في مدح الخالق من الملك, وأما الملك فهو أبلغ في مدح المخلوقين من المالك؛ لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، والله -تبارك وتعالى- إذا كان مالكاً فهو ملك, وهذا الذي اختاره القاضي أبو بكر بن العربي، فيرى أنه بالنسبة لله عز وجل المالك أبلغ, وبالنسبة للمخلوقين الملك أبلغ(تفسير القرطبي (141/1).
وتوسط الشوكاني -رحمه الله- في هذا -وهو قول له وجه جيد من النظر- فقال: "والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله"(فتح القدير للشوكاني (26/1).
لو عندك رقيق، هل يستطيع الملك أن يعتقه عنك دون إرادتك؟ وهل ينفذ هذا العتق؟ الجواب: لا, هل يستطيع أن يطلق امرأتك؟, لا، أنت الذي تملك عقدة النكاح, هذا في أمثلة واضحة جدًّا.
وهذا القول قول جيد، وله وجه من النظر, ولهذا فإن الله -تبارك وتعالى- سمى نفسه بالملك, والمالك, فتكون كل هذه الكمالات, والمعاني متحققة في حقه -تبارك وتعالى-, وبهذا يعرف الإنسان التعليل، وسبب تسمية الله - عز وجل - نفسه بهذه الأسماء التي بينها شيء من التقارب ملك, ومليك, ومالك, لكن لو كان الاسم فقط المالك, أو فقط الملك فقد يقول قائل: إن الملك لا ينفذ تصرفه في ملك غيره فيما يختص به في جميع الحالات.
ثم أيهما أبلغ المالك أو المليك؟
المليك أبلغ من المالك, لأن المالك والمليك مثل الناصر والنصير, والعالم والعليم, فأيهما أبلغ العالم أو العليم ؟ العليم أبلغ, فالمليك أبلغ من المالك.
وأمّا المَلِك فكما سبق هو من بعض الجوانب أبلغ في الدلالة على بعض المعاني, ومن بعض الجوانب المالك أبلغ في بعض المعاني.

ذكر الفرق بين ملكية الله تعالى, وملكية المخلوق:

الله -تبارك وتعالى-كما جاء في القرآن قد سمي بعض المخلوقين بالمَلِك، كما قال - عز وجل -:{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ}[يوسف: 50]،{ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا }[الكهف: 79]،{ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً }[النمل: 34]، فالمخلوق يقال له ملك, ولهذا فإن هذا الاسم ليس من الأسماء المختصة بالله - عز وجل -، بل يسمى به المخلوق بلا إشكال, لكن هل يكون للمخلوق عند إطلاق ذلك عليه ما يكون للخالق؟
الجواب: لا, وذلك يظهر ويتبين من وجوه متعددة توضح الفرق بين الإطلاقين.

الأول: أن الثابت للبشر من معاني الملك يختلف تماماً عن الثابت للحق ـ عز وجل ـ، فالإنسان عندما يملك أو يقال بأنه ملك إنما هو مستخلف ومبتلى، وملكه طارئ يزول, ولا يدوم، فهو لم يكن ملكاً، ثم صار ملكاً، وسيترك هذا الملك ولا محالة، إما أن يتركه الملكُ، وإما أن يترك هو الملكَ، فمُلك البشر ملك استخلاف وابتلاء, وليس ملكاً حقيقيًا دائماً.

أما الله ـ عز وجل ـ فملكه ملك دائم ثابت مستقر، لا يزول بحال من الأحوال، فمن كان ملكاً وسيداً لكل شيء أزلاً وأبداً كان الملك كله بيده, ولم يكن له فيه شريك, وكان إن شاء ملّك من يشاء من عباده ما شاء من ملكه، وإن شاء نزعه منه، كما في الآية السابقة: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ}[آل عمران: 26] فتمليك الرب ـتبارك وتعالىـ لأحد من العباد إنما هو تمليك عارية, والعارية مستردة، يستردها صاحبها إن شاء، عندما يشاء، فهي ملكية مؤقتة غير أصلية، ولهذا فإن إطلاق المُلك على المخلوق فيه شيء من التوسع، يسميه بعضهم بالمجاز، يقول: هذا مُلك مجازي، ما هو ملك حقيقي، الملك الحقيقي لله عز وجل لأن المالك والملك الحق هو الله رب العالمين.

وذلك فإن الله ـ عز وجل ـ مستحق للملك؛ لأنه هو الذي أوجد الأشياء وخلقها, واخترعها، ولا زال الناس يعبرون في حق من اخترع شيئاً, يقولون له: ملكية، يسمونه حق الاختراع, والابتكار، يقولون: هذا له حق الطبع؛ لأنه أوجد ذلك واخترعه، والنبي ﷺ يقول: (من أحيا أرضًا ميتة فهي له)(رواه ابو داود). وفي صحيح البخاري أن ذلك من قول عمررضي الله عنه.

وإذا نظرت إلى ملوك الدنيا تجد أن الواحد منهم لا يستطيع بحال من الأحوال أن يؤسس ملكه على سبيل الانفراد، لابد له من أعوان, وجنود، لابد له من مستشارين، لابد له من منفذين، لابد له من كوارد، لابد له من قوة من البشر، لابد له من ظهير ومعين، إما من أهله وقرابته، أو من حزبه، أو من قبيلته، أو عشيرته، لكن الله ـتبارك وتعالىـ من الذي أعانه على إيجاد الخلق؟ من الذي قواه ودعمه وهو الذي أوجدهم، وهم أفقر ما يكونون إليه ـ عز وجل ـ؟،{ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا }[الكهف: 51].

وفي الصحيح من حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: (كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء)(رواه البخاري) ، يعني: في اللوح المحفوظ .

والله ـتبارك وتعالىـ يقول:{ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى }[طه: 6].

فهذا هو الملك الحقيقي، وهكذا أيضاً فإن علة الملك التام هي دوام الحياة، فدوام الحياة لابد منه من أجل أن يكون الملك ثابتاً مستقرًا، وإلا فإذا كانت الحياة متقضية كحياة الناس فإن من تحقق له شيء من الملك فإنه ينتظر في أي لحظة متى يرتفع ذلك عنه بالموت, والموت لا يفرق بين ملك ومملوك, وإنما يعم الجميع, وبهذا نعرف أن ملك جميع الخلق مهما كان ومهما عظم فهو زائل مضمحل لا محالة.

والله يقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[الرحمن: 26-27]،{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[العنكبوت: 57]،{ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ}[غافر: 16]، {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[غافر: 16]، لا أحد يدعي الملك، ولهذا أضاف ملكه ـ عز وجل ـ في سورة الفاتحة إلى يوم الدين: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة: 4].

حيث لا يدعي أحد الملك سوى الله ـ عز وجل ـ، وهو الملك الحقيقي الذي لا يقارن بغيره، فإذا كان مالكًا ليوم الدين فكونه مالكاً للدنيا من باب أولى: { وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[آل عمران: 180].

فالله يرث الأرض ومن عليها, والحاصل أن الملك لله ـتبارك وتعالىـ في المبتدأ عند إنشاء الخلق، فلم يكن أحد سواه, وله الملك في المنتهى عند زوال الخلق؛ لأنه لا يبقى من الملوك أحد سواه، ووجه آخر أيضاً يبين هذا المعنى ـوهو الفرق بين ملك الخالق, وملك المخلوقـ أن ملوك الدنيا إذا أعطوا نقص

ملكهم بهذا العطاء، فتنفذ لربما خزائنهم, ولربما اختلت ميزانياتهم، وتفرقت عنهم الأموال, الأمر الذي يؤذن بتفرق الناس عنهم، والملك لابد فيه من المال, وأما الله -تبارك وتعالى- فخزائنه ممتلئة لا تنقص، ولا تنفذ.

وهو الذي يعطي الملك لمن يشاء من خلقه، فكل تمليك إنما هو هبة منه - عز وجل -، قلّ ذلك أو كثر، وسيئول ذلك إليه لا محالة.

الثاني: هو أن البشر وما ملكوا كلهم ملك للهِ عز وجل، وخالقِهم - عز وجل -، فهو المَلك, والمالك المُلك الحقيقي الدائم، يملك كل شيء، فهو يتصرف بهذه الخليقة، وهو المعز، المذل، يؤتي الملك من يشاء، فيملك ذوات الأشياء، ونواصي الخلق في قبضته، وتحت تصرفه، وله الملك أيضاً من جهة العبودية، فكل المخلوقين هم عبيد لله عز وجل إما عبودية اختيار، وإما عبودية قهر، فمن الذي يوجدهم؟ ومن الذي يفنيهم؟ ومن الذي يتصرف بهم فيما بين ذلك؟ إنه الله - عز وجل -، فله الملك على الخلق أجمعين, ومن عداه فهو عبد ذليل، إنما يكون كماله ورفعته على قدر تحقيقه للذل والعبودية، فكلما كان العبد أعظم وأكثر مهارة وتحقيقاً للذل كلما كان ذلك رفعة في مرتبته، هذا الذي يصلح للمخلوق، أما التعاظم فإنه لا يكون إلا للمالك المعبود - عز وجل -.

وهذا من فضله ونعمته عز وجل أن الملك جميعاً لله عز وجل .

تصور لو كان الملك للمخلوقين ما الذي يحصل في هذا الكون؟

{قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا }[الإسراء: 100]، تصور لو كان الإيجاد والإعدام, والسعادة, والشقاوة بيد الخلق ما الذي سيحصل؟

قد تجد للأسف بعض من ينتسب إلى الإسلام، لو أن الأمر بيده لا يكتفي بموت بعض من يناوئهم وينافسهم، لا يكتفي بموتهم، ولا تطيب نفسه بهذا، بل لو كان الأمر بيده لما اختار لهم إلا الدرك الأسفل من النار, وهذا شيء مشاهد، رميٌ بالعظائم، وأمور لا يعلمها إلا الله عز وجل لو كان هؤلاء بيدهم الملك ماذا سيصنعون في خلق الله عز وجل؟

والله هو الرءوف الرحيم، الذي يقبل توبة العبد، ويفرح بها، ويعطي، ويغدق الأرزاق على عباده، نحن لربما لو أن أحداً أخطأ علينا في شيء يسير، لربما تجد الدعاء أن يجمد الله الدم في عروقه، وأن ييتم أطفاله، ويرمل نساءه، وأن يجعله يتمنى الموت ولا يجده, وأن يجعله يفقد سمعه وبصره، لأجل خطأ بسيط، ربما يكون هذا الإنسان اتصل بالخطأ، أخطأ في الرقم، أو أي خطأ من الأخطاء، سرق شيئاً يسيراً لك، أو نحو ذلك، لو كان هؤلاء الناس لهم نصيب من الملك، { أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا }[النساء: 53].

انظروا إلى اليهود، كيف حسدوا النبي ﷺ وحسدوا العرب على النبوة: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء: 54].

انظر إلى التحاسد بين الخلق, بين المسلمين، تجد شيئاً هائلاً، لا يقادر قدره، لو هؤلاء كان لهم الملك ماذا سيصنعون بالآخرين؟

فانظر إلى لطف الله - عز وجل -، ينسبون له الصاحبة، والولد، ويرزقهم، ويتلطف بهم غاية التلطف، يدعوهم للتوبة:{ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[المائدة: 74].

هذا هو الخالق - عز وجل -، الملك الحقيقي، انظر إلى المخلوق وهو لا يملك شيئاً، ومع ذلك كيف تكون حاله!.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا الإسراء: 111.

الثالث: أن كل المخلوقات مفتقرة محتاجة إلى غيرها.

فالجماد فقير محتاج، والنبات كذلك, والحيوان كذلك, والإنسان كذلك، فالإنسان يجوع فيطلب الطعام، ولو كان ملكاً، ويمرض فيطلب الدواء، وهكذا سائر الكائنات، فالفقير لا يصلح للملك الكامل المطلق؛ لأنه مفتقر إلى غيره.
دخل ابن السماك على هارون الرشيد يوماً، فاستسقى الرشيد، فأُتي بقلّة فيها ماء مبرد، فقال لابن السماك: عظني.
فقال: يا أمير المؤمنين، بكم كنت مشتريًا هذه الشربة لو مُنعتها؟ فقال: بنصف ملكي.
فقال: اشرب هنيئًا، فلما شرب قال: أرأيت لو مُنعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ قال بنصف ملكي الآخر.
فقال: إن ملكًا قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة لخليق أن لا يتنافس فيه. فبكى هارون .(البداية والنهاية (234/10).
ملك كامل من المحيط إلى حدود الصين، يدفع بكأس ماء, هل هذا ملك يستحق أن يغتر به الإنسان, ويكون معرضاً عن ربه -تبارك وتعالى- بسبب ما منحه الله وأعطاه؟.
وإنما المَلك الحق هو الذي يستغني عن كل أحد, ويفتقر إليه كل واحد، وإنما صاحب الملك المطلق هو الله تعالى، وملكه عام لجميع المخلوقات، بخلاف ملك البشر، هل يوجد بشر يملك جميع المخلوقات؟
أبداً، لا يوجد، حتى لو أن أمره سرى على كثير من المخلوقين، فهل يستطيع في سرهم وعلانيتهم أن يحكمهم بما يريد؟ أبداً.
الذين حاولوا بالحديد, والنار، وتسلطوا على رقاب الخلق عشرات السنين في الثورة الشيوعية، وكان الرجل لا يأمن أخاه، ولا أباه، قد سمعنا من الإخوان أول ما جاءوا من تلك البلاد، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، سألناهم عن أحوالهم، وكيف كان شأنهم، يقولون: الريبة عامة، الولد لا يثق بالأب, والأخ لا يثق بأخيه، والوالد لا يثق بالولد، فلا يمكن أن يبدي له أنه متدين، أو أنه يصلي أمامه، يخاف من ولده، أن هذا الولد قد سُلط عليه، إلى هذا الحد!.
ومع ذلك رأينا عشرات النماذج من هؤلاء على أحسن حال من التربية والعلم، رأينا من درسوا إلى الكافية لابن الحاجب في النحو، وحفظوا القرآن، وفي حال جيدة من العبادة والتهذيب في السلوك، والحرص على طلب العلم، حتى سألت بعضهم من أين جئت؟ من أين خرجتم؟
قالوا: خرجنا من -يسمونها- الحجرات، وهي أماكن تحت الأرض يدرسون فيها القرآن، لا يخرجون إلا بعد انتهاء المدة، بعد سنتين، ويكون في مكان غير بلدته وقريته، من أجل أن لا يذهب إلى أهله، وإنما يخرج ليلة الجمعة ليلا يغتسل ويرجع ما يراه أحد، ثم إذا تخرج منها أرسلوه إلى مكان غير بلدته، ويجلس في هذا المكان تحت الأرض، ويعلم الطلاب، ويخرجهم لا يراه الناس، ولا يختلط بهم، تخرجت نماذج عجيبة، محافظة على دينها.
فهل استطاع أولئك بقسرهم، وتهديدهم، ووعيدهم؟ رأينا بعض الصور الجثث كالجبال، ملايين تعتامها آلات الحفر، إلى هذا الحد رجال ونساء، وما استطاعوا مع ذلك أن يُجروا ما أرادوه على الناس في سرهم وخلوتهم.
الله عز وجل أمره نافذ في الجميع، من شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضله، ومن شاء إمراضه، أو شفاءه أو إحياءه أو إماتته، لا يتخلف أحد, ولا يحصل في الكون تحريكة، ولا تسكينة إلا بإرادته - عز وجل -، هذا هو الملك الحقيقي.
أما المخلوق فهو مسكين، عاجز ضعيف، هو محتاج إلى غيره، لا يستغني عن الناس، فضلاً عن أن يستغني عن الله -تبارك وتعالى-، والله - عز وجل - قد جعل لكل شيء آفة في هذا الخلق.
ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه * حتى الحديدُ سطا عليه المِبردُ**

النبات له آفات، الحيوانات لها آفات من الميكروبات والفيروسات، حتى هذه الصناعات الجديدة الآن البرامج, والإنترنت, والكمبيوتر لها آفات لو تحدث بها الإنسان قبل عشرات السنين لربما ظُن أنه يمزح، أو يتوسع في العبارات، هذا الجهاز دخله فيروس، أو هذا أُرسل إليه فيروس، جهاز يمرض، وتصيبه الفيروسات، كل شيء له آفة.

الشباب يتحول إلى الهرم، والصحة يصيبها المرض، وتنتهي الحياة بالموت, وفرعون لما طغى، وقال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى النازعات: 24، قال الله عز وجل : { وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }[الفجر: 10 - 14].

وهكذا أيضاً آفة الدعوة التفرق، وآفة الدعاة ما قد يسلط عليهم ممن يقع في أعراضهم، ويشتمهم، ويظن بهم الظنون السيئة، وآفة العلم النسيان، إلى غير ذلك من الأمور، كل شيء له آفة.

وهذا يدل على أن الله -تبارك وتعالى- له الملك المطلق، لا تصيبه الآفات.

يقول ابن جرير -رحمه الله- في قوله تعالى: { لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ }[البقرة: 255]، لا تحله الآفات، ولا تناله العاهات(تفسير الطبري (393/5).

فله الكمال المطلق، وفي الحديث أن النبي ﷺ يقول: (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له)(رواه مسلم).

الرابع: ما ورد من نصوص الكتاب والسنة في هذه الأسماء الكريمة:

فالمَلك ورد في القرآن ست مرات:

- في طه والمؤمنون: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ}[طه: 114]،[المؤمنون: 116].
- في سورة الجمعة: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ}[الجمعة: 1].
- في سورة الحشر {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ}[الحشر: 23].
- الموضع الخامس: هو قوله: {مَلِكِ النَّاسِ}[الناس: 2].
- السادس: القراءة الأخرى المتواترة في سورة الفاتحة: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ هذه ستة مواضع.

وأما المالك فورد مرتين:

الأولى: بقوله:{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة: 4].

الثانية: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ }[آل عمران:26].

وأما المليك فقد ورد في القرآن مرة واحدة: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}[القمر: 54، 55].

وأما المُلك فقد ورد في القرآن فيما يقرب من ثمانية وعشرين موضعاً، كقوله تعالى:{ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ }[الأنعام: 73] و{لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}[الإسراء: 111]،{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}[آل عمران: 189] إلى غير ذلك من المواضع.

وأما ما ورد في السنة فقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: (ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟، من ذا الذي يسألني فأعطيه؟، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر).

فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر، هذا الحديث حينما يمضي ثلث الليل الأول، الناس اليوم لا ينامون في ذلك الوقت، يعني: يكون الوقت مبكرًا, ويقول: من ذا الذي يسألني؟ من ذا الذي يدعوني؟

لو أن أحدً من الأغنياء -وليس الملوك- إذا مضى الثلث الليل الأول أو الآخر فتح بابه، وقال: من ذا الذي يحتاج إلى قرض؟ من ذا الذي يحتاج إلى هبة؟ من الذي يحتاج إلى هدية؟ ما الذي يحصل؟

لو أن أحدً من الأغنياء -وليس الملوك- إذا مضى الثلث الليل الأول أو الآخر فتح بابه، وقال: من ذا الذي يحتاج إلى قرض؟ من ذا الذي يحتاج إلى هبة؟ من الذي يحتاج إلى هدية؟ ما الذي يحصل؟

فكيف لو أن ملكاً قال ذلك؟ يجلس للناس في وقت كل يوم, ويقول: من له حاجة فيأتي ونعطيه حاجته؟، والله كل ليلة ينزل: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يضيء الفجر.

وفي الصحيح من حديث عبد الله بن أنيس مرفوعاً إلى النبي ﷺ: [يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان](رواه البخاري).

وفي صحيح مسلم من حديث علي رضي الله عنه في دعاء الاستفتاح وفيه: (اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً)الحديث.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ وفيه: فقال: (يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع, والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك)(متفق عليه).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: (يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)(متفق عليه).

وعند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: (يأخذ الله عز وجل سمواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله -ويقبض أصابعه ويبسطها-، أنا الملك" حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟).

وأما المليك فقد جاء في سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث ابن بريدة عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا أخذ مضجعه: (الحمد لله الذي كفاني وآواني، وأطعمني وسقاني، والذي مَنّ علي فأفضل، والذي أعطاني فأجزل، الحمد لله على كل حال، اللهم رب كل شيء ومليكه وإله كل شيء أعوذ بك من النار).

وعند الترمذي بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مرني بشيء أقوله إذا أصبحت، وإذ أمسيت، قال: قل: (اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه).

وأما الملكوت فقد جاء في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه وهو عند أبي داود والنسائي, وفيه ما كان النبي ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده في قيام الليل (سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة) يردد ذلك -عليه الصلاة والسلام.

<u>الكلام على ما تدل عليه هذه الأسماء:</u>

اسم الملك يدل على ذات الله, وعلى صفة الملك بدلالة المطابقة, يدل على الأمرين معاً بدلالة المطابقة. ويدل على أحدهما بدلالة التضمن، ويدل باللزوم, لا يكون ملكاً إلا من اتصف بجملة من الأوصاف، يدل على الحياة والقيومية, والأحدية, والصمدية, والعلم, والمشيئة, والقدرة, والحكم, والعدل والقوة, والقبض, والبسط, والعزة, والكبرياء, والهيمنة, والعظمة.

وكل ما يلزم من صفات الذات، وصفات الفعل لاتصافه وتسميته بالملك الحق.

فعموم ملكه مستلزم لإثبات القَدر، وأنه لا يكون في ملكه شيء بغير مشيئته، فالله أكبر من ذلك وأجل، والمَلك هو الذي يأمر وينهى، ويكرم ويهين، ويثيب ويعاقب, ويعطي, ويمنع, ويعز, ويذل, هذا كله من لوازمه.

وأما المليك فهو يدل على ذات الله عز وجل وعلى صفة الملك معاً بدلالة المطابقة, ويدل على أحدهما بدلالة التضمن, ويدل باللزوم كذلك -كما سبق- على الحياة، والقيومية والأحدية، والصمدية، والعلم، والمشيئة.

وأما المالك فإنه أيضاً يدل على ذات الله عز وجل وعلى صفة التملك الملكية المطلقة، بدلالة المطابقة، ويدل على أحدهما بدلالة التضمن، ويدل باللزوم أيضاً على الحياة, والقيومية، والعلم، والأحدية، والمشيئة، والقدرة، إلى آخر ما سبق، هذه ست قضايا. ".

قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) }؛ { إياك }: مفعول به مقدم؛ وعامله: { نعبد }؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك فهي بمعنى لا اله الا الله و{ نعبد } أي نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله عزّ وجلّ..
و "العبادة" تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛. ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: { وإياك نستعين } أي لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛فهي بمعنى لا حول ولا قوة الا بالله
و "الاستعانة" طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.. كما قال تعالى : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } [الصافات : 23] { قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } [الملك : 29] .([47])

---

[47] ـ قال ابن القيم في مدارج السالكين :" الناس في هذين الأصلين وهما العبادة والإستعانة أربعة أقسام
أجلها وأفضلها أهل العبادة والإستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال[يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك].
فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين ومقابل هؤلاء القسم الثاني وهم المعرضون عن عبادته والإستعانة به فلا عبادة ولا إستعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه وهذا حشو قلبه ولا يشعر به والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل
وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا
فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر وإتهامه وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتي والأمر ليس إلي والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه .
فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك وإذا لم تجد من سؤاله بدا فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة وقدم بين يدي سؤالك الإستخارة ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره .
وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عونا لك على طاعته وبلاغا إلى مرضاته ولا يجعله قاطعا لك عنه ولا مبعدا عن مرضاته ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى { فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي

والاستعانة نوعان: استعانة تفويض؛ وهذا خاص بالله عزّ وجلّ؛ واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حياً قادراً على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: 2)

قال ابن كثير :" [قَرَأَ السَّبْعَةُ وَالْجُمْهُورُ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ {إِيَّاكَ} وَقَرَأَ عَمْرُو بْنُ فَايِدٍ بِتَخْفِيفِهَا مَعَ الْكَسْرِ وَهِيَ قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ مَرْدُودَةٌ؛ لِأَنَّ "إِيَّا" ضَوْءُ الشَّمْسِ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: "أَيَّاكَ" بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: "هَيَّاكَ" بِالْهَاءِ بَدَلَ الْهَمْزَةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَهَيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَرَاحَبَتْ ... مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ

وَ {نَسْتَعِينُ} بِفَتْحِ النُّونِ أَوَّلَ الْكَلِمَةِ فِي قِرَاءَةِ الْجَمِيعِ سِوَى يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ وَالْأَعْمَشِ فَإِنَّهُمَا كَسَرَاهَا وَهِيَ لُغَةُ بَنِي أَسَدٍ وَرَبِيعَةَ وَبَنِي تَمِيمٍ وَقَيْسٍ] .

الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّد، وَبَعِيرٌ مُعَبّد، أَيْ: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ .

وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَهُوَ {إِيَّاكَ} ، وَكُرِّرَ؛ لِلِاهْتِمَامِ(48) وَالْحَصْرِ، أَيْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ. وَالدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَةِ: 5] فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ والقوة، وتفويض إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هُودٍ: 123] {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الْمُلْكِ: 29] {رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [الْمُزَّمِّلِ: 9] ، وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} .

وَتَحَوُّلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ، وَهُوَ مُنَاسَبَةٌ ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلِهَذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةُ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ" .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَوْلَى الحَرَقَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الْفَاتِحَةِ: 2] قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الْفَاتِحَةِ: 3] قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الْفَاتِحَةِ: 4] قَالَ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَةِ: 5] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الْفَاتِحَةِ: 6، 7] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" . وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ

أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا } أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء علي وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى إياك نعبد وإياك نستعين ".

48 ـ وهنا تقدم المفعول للأهتمام فقد الخالق على المخلوق .

ابْنِ عَبَّاسٍ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يَعْنِي: إِيَّاكَ نُوَحِّدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُو يَا رَبَّنَا لَا غَيْرَكَ [49]{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} عَلَى طَاعَتِكَ وَعَلَى أُمُورِنَا كُلِّهَا.
وَقَالَ قَتَادَةُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمْرِكُمْ.
وَإِنَّمَا قَدَّمَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} عَلَى {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَالِاهْتِمَامُ وَالْحَزْمُ هُوَ أَنْ يُقَدَّمَ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.[50]

---

[49] ـ فكلمة {إياك نعبد} تدل على الاثبات في كلمة التوحيد ومفهوم المخالفة فيها يدل على نفي عبادة غير الله في كلمة التوحيد.

[50] ـ ذكر ابن القيم اوجه تقديم العبادة على الاستعانة في مدارج السالكين فقال :" تقديم العبادة على الإستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والإستعانة وسيلة إليها .
ولأن إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه الله وإياك نستعين متعلق بربوبيته واسمه الرب فقدم إياك نعبد على إياك نستعين كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة ولأن إياك نعبد قسم الرب فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به وإياك نستعين قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة .
ولأن العبادة المطلقة تتضمن الإستعانة من غير عكس فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته فكانت العبادة أكمل وأتم ولهذا كانت قسم الرب .
ولأن الإستعانة جزء من العبادة من غير عكس ولأن الإستعانة طلب منه والعبادة طلب له .
ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والإستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص .
ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك والإستعانة طلب العون على العبادة وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته .
ولأن العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يشكر والإعانة فعله بك وتوفيقه لك فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .
والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه
ولأن إياك نعبد له وإياك نستعين به وماله مقدم على ما به .
لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته فإن الكون كله متعلق بمشيئته والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم فالكفار أهل مشيئته والمؤمنون أهل محبته ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته .
فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم إياك نعبد على إياك نستعين
وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الإهتمام وشدة العناية به وفيه الإيذان بالإختصاص المسمى بالحصر فهو في قوة لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما وسيبويه نص على الإهتمام ولم ينف غيره .
ولأنه يقبح من القائل أن يعتق عشرة أعبد مثلا ثم يقول لأحدهم إياك أعتقت ومن سمعه أنكر ذلك عليه وقال وغيره أيضا أعتقت ولولا فهم الإختصاص لما قبح هذا الكلام ولا حسن إنكاره .
وتأمل قوله تعالى {وإياي فارهبون } { وإياي فاتقون } كيف تجده في قوة لا ترهبوا غيري لا تتقوا سواي وكذلك { إياك نعبد وإياك نستعين } هو في قوة لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الإختصاص من علة السياق .
ولا عبرة بجدل من قل فهمه وفتح عليه باب الشك والتشكيك فهؤلاء هم آفة العلوم وبلية الأذهان والفهوم مع أن في ضمير إياك من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل ففي إياك قصدت وأحببت من الدلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك قصدتك وأحببتك وإياك أعني فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني .. وفي إعادة إياك مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين ففي إعادة الضمير من قوة الإقتضاء لذلك ما ليس في حذفه فإذا قلت لملك مثلا إياك أحب وإياك أخاف كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والإهتمام بذكره ما ليس في قولك إياك أحب وأخاف".

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى النُّونِ فِي قَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فَإِنْ كَانَتْ لِلْجَمْعِ فَالدَّاعِي وَاحِدٌ، وَإِنْ كَانَتْ لِلتَّعْظِيمِ فَلَا تُنَاسِبُ هَذَا الْمَقَامَ؟ وَقَدْ أُجِيبَ: بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ عَنْ جِنْسِ الْعِبَادِ وَالْمُصَلِّي فَرْدٌ مِنْهُمْ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ فِي جَمَاعَةٍ أَوْ إِمَامَهُمْ، فَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي خُلِقُوا لِأَجْلِهَا ، وَتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّعْظِيمِ(وليس المقام مقام تعظيم للنفس وانما هو مقام اظهار الذلة والافتقار)، كَأَنَّ الْعَبْدَ قِيلَ لَهُ: إِذَا كُنْتَ فِي الْعِبَادَةِ فَأَنْتَ شَرِيفٌ وَجَاهُكَ عَرِيضٌ فَقُلْ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ، وَإِذَا كُنْتَ خَارِجَ الْعِبَادَةِ فَلَا تَقُلْ: نَحْنُ وَلَا فَعَلْنَا، وَلَوْ كُنْتَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ أَلْفِ أَلْفٍ لِافْتِقَارِ الْجَمِيعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَلْطَفُ فِي التَّوَاضُعِ مِنْ إِيَّاكَ أَعْبُدُ، لِمَا فِي الثَّانِي من تعظيمه نفسه مِنْ جَعْلِهِ نَفْسَهُ وَحْدَهُ أَهْلًا لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْبُدَهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَلَا يُثْنِيَ عَلَيْهِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَالْعِبَادَةُ مَقَامٌ عَظِيمٌ (1) يَشْرُفُ بِهِ الْعَبْدُ لِانْتِسَابِهِ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ تَعَالَى..

وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ رَسُولَهُ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ [فَقَالَ] {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الْكَهْف: 1] {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [الْجِنّ: 19] {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا} [الْإِسْرَاء: 1] فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَإِسْرَائِهِ بِهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الْحِجْر: 97-99] ".

وفي قوله تعالى {اياك نعبد} مراعاه للأمر وفي قوله تعالى {إياك نستعين} مراعاة للقدر قال شيخ الاسلام ابن تيمية :" فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر : كان عابدا الله مطيعا له مستعينا به متوكلا عليه من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع كقوله : { إياك نعبد وإياك نستعين } وقوله : { فاعبده وتوكل عليه } وقوله : { عليه توكلت وإليه أنيب } وقوله : { ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا } فالعبادة لله والاستعانة به [وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند الأضحية اللهم منك ولك] فما لم يكن بالله لا يكون فانه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم يكن لله فلا ينفع ولا يدوم ولابد في عبادته من أصلين (أحدهما) إخلاص الدين له :

الثاني) موافقة أمره الذي بعث به رسله ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا يجعل لأحد فيه شيئا وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال : أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا على : ما أخلصه وأصوبه قال : إذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لن يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة

ولهذا ذم الله المشركين في القرآن على أتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين ما لم يأذن به الله من عبادة غيره فعل ما لم يشرعه من الدين كما قال تعالى : { أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله } كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه الله.

والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله و لا دين إلا ما شرعه.

ثم إن الناس في عبادته واستعانته على أربعة أقسام : فالمؤمنون المتقون هم له وبه يعبدونه ويستعينونه

وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر فتجد عند أحدهم تحريا الطاعة والورع ولزوم السنة ولكن ليس لهم توكل واستعانة وصبر بل فيهم عجز وجزع.

وطائفة فيهم استعانة وتوكل وصبر من غير استقامة على الأمر ولا متابعة للسنة فقد يمكن أحدهم ويكون له نوع من الحال باطنا وظاهرا ويعطى من المكاشفات والتأثيرات ما لم يعطه الصيف الأول ولكن لا

عاقبة له فإنه لبس من المتقين والعاقبة للتقوى فالأولون لهم دين ضعيف ولكنه مستمر باق إن لم يفسده صاحبه الجزع والعجز وهؤلاء لأحدهم حال وقوة ولكن لا يبقى له إلا ما وافق الأمر واتبع فيه السنة وشر الأقسام من لا يعبده ولا يستعينه فهو لا يشهد أن علمه لله ولا أنه بالله فالمعتزلة ونحوهم ـ من القدرية الذين أنكروا القدر ـ هم في تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد خير من هؤلاء الجبرية القدرية الذين يعرضون عن الشرع والأمر والنهى
والصوفية هم في القدر ومشاهدة توحيد الربوبية : خير من المعتزلة ولكن فيهم من فيه نوع بدع مع إعراض عن بعض الأمر والنهي والوعد والوعيد حتى يجعلوا الغاية هي مشاهدة توحيد الربوبية والفناء في ذلك ويصيرون أيضا معتزلين لجماعة المسلمين وسنتهم فهم معتزلة من هذا الوجه
وقد يكون ما وقعوا فيه من البدعة شرا من بدعة أولئك المعتزلة وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة ".
ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عند شرحه لقوله ـ تعالى ـ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة ـ 5]:" وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية"(الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص 98).
وقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ترى أن الله تعالى قدم العبادة على الاستعانة لأن العبادة هي الغاية وأن الاستعانة هي الوسيلة إليها فإذا لم يعن الله عبده على طاعته ولم يطلب العبد إعانته على ذلك لا تحصل منه تمام العبادة .. أي إننا إذا لم نجعل طلب الإعانة من الله وحده لا تكون العبادة خالصة له .
وهكذا فإن العبد بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين إنما حصر العبادة والاستعانة بالله وحده فـ(إياك نعبد) تبرؤ من الشرك (وإياك نستعين) تبرؤ من الحول والطول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل .
قال شيخ الإسلام: "المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإنَّ أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران كما في قوله {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}، وفي قوله: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فجمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب فإنَّ الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد، والرب هو الذي يربي عبده فيدبره.
ولهذا كانت العبادة متعلقةً باسمه الله، والسؤال متعلقاً باسمه الرب، فإنَّ العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق، والإلهية هي الغاية، والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم، والمصلي إذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، تلك حكمة وهذا سبب"(الفتاوى (283،284/10)).
وقال ابن القيم :" لما كان حرص الانسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئتة وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام اياك نعبد واياك نستعين فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولاتتم الا بمعونته فأمره بأن يعبده ويستعين به وقال غيره استعن بالله أي اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره كما قال تعالى اياك نعبد واياك نستعين فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه فلا معين له على مصالح دينه ودنياه الا الله عز و جل فمن اعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا الحمد لله نستعينه ونستهديه ومن دعاء القنوت اللهم إنا نستعينك وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وكان ذلك من دعائه صلى الله عليه و سلم ومنه أيضا اللهم أعني ولا تعن علي واذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به كان مستعينا بالله عز و جل متوكلا عليه راغبا وراهبا إليه فيستحق له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى".

واعلم بإن جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أولهم إلى آخرهم دعوا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له : [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ][الأعراف : 59] كما أن الله ـ عز وجل ـ قد جعل العبودية وصفاً لأكمل خلقه
وأقربهم إليه وهم الأنبياء والملائكة فقال ـ سبحانه : [لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً] [النساء : 172] .
ووصف الله ـ تعالى ـ أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة ـ بالعبودية في أشرف مقاماته ، فقال ـ تعالى : [تَبَارَكَ الَذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً] [الفرقان : 1] ، وقال ـ سبحانه : [سُبْحَانَ الَذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً
مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَا الَذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] [الإسراء : 1] .
وجعل النبي ـصلى الله عليه وسلمـ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان ، فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان : (أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك) أخرجه مسلم .
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله : (كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ـ تعالى ـ ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته) (العبودية ، ص 80) .
ويقول في موضع آخر : (والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له ، كان أقرب إليه ، وأعزّ له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله ، وأما المخلوق فكما قيل : احتجْ إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن
عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره . فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم ، كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ـ ولو في شربة ماء ـ نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ولا يُشرَك به شيء) (مجموع الفتاوى ، 39/1).
وها هنا قاعدة أخرى ، وهي أن حاجة الإنسان وضرورته إلى عبادة الله ـ تعالى ـ فوق كل حاجة وضرورة .
يقول ابن تيمية ـ في هذا الصدد : (اعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كثيرة .
فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها ، الله الذي لا إله إلا هو فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه .
ولو حصل للعبد لذّات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ به غير منعم له ولا ملتذ به ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنه ، ويضره ذلك .
وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت ، وأينما كان فهو معه ...) (مجموع الفتاوى ، 24/1 ، 25 ، وانظر مجموع الفتاوى ، 32/28) .
ويقول ابن القيم ـ مقرراً تلك الحاجة : (اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في محبته ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا في التوكل عليه ، ولا في العمل له ، ولا في الحلف به ، ولا في النذر له ، ولا في الخضوع له ، ولا في التذلل والتعظيم ، والسجود والتقرب ، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه ، والعين إلى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به ؛ فإن حقيقة القلب روحه وقلبه ، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره.. ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ، ورضاه وإكرامه لها) .
وأما عن تعريف العبادة ، فالعبادة لغةً : من الذلّ ، يقال : بعير معبّد ، أي مذلل .

وقد تنوّعت أقوال العلماء في تعريف العبادة :
فقال ابن جرير : (معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة ، والتذلل له بالاستكانة ، وفسّر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ العبادة بالتوحيد .
وقال القاضي أبو يعلى : (حقيقة العبادة هي الأفعال الواقعة لله ـ عز وجل ـ على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد) (المعتمد في أصول الدين ، ص 103) .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) .
وهذا التعريف باعبار ذات العبادة اي ما يتعبد به .
وعرفها ابن القيم فقال:" والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ". وذلك باعتبار عمل العامل أي تعبد العبد الذي هو فعله.
وهذا مثل اطلاق الأكل والقراءة والكتابة والوحي فالاكل يطلق على المأكول ويطلق على الفعل وكذلك القراءة تطلق على المقروء وتطلق على الفعل وكذلك الكلام يطلق على المتكلم به ويطلق على الفعل وهكذا .
وقال ايضا (أصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه ، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها : فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه "(مدارج السالكين ، لابن القيم ، 91/1) .
وقوله في موطن آخر : " العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع "(مدارج السالكين ، لابن القيم ، 77/1) .
وقال ايضا : (وبنى (إياك نعبد) على أربع قواعد : ... التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح . فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب (إياك نعبد) حقاً هم أصحابها ، فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله ـ سبحانه ـ به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .
وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه والذبّ عنه وتبين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكر وتبليغ أوامره .
وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه ، وعلى أقداره ، وغير ذلك من أعمال القلوب وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ، ونحو ذلك) (مدارج السالكين 100/1).
ويقول ابن تيمية : "العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل "(قاعدة في المحبة (ضمن جامع الرسائل) ، 196/2).
وأما تعريف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ للعبادة بالتوحيد ، فهو اعتبار العبادة المقبولة ، فلا تقبل العبادة عند الله ـ تعالى ـ إلا بتحقيق التوحيد ، وأما العبادة من حيث هي فهي أعم من كونها توحيداً عاماً مطلقاً ، فكل موحد عابد لله ـ تعالى ـ ، وليس كل من عبد الله ـ تعالى ـ يكون موحداً .(انظر مجموعة التوحيد ، ص 401) .
وأما من عرّف العبادة بما أمر به شرعاً من غير اطِّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي ، فهو باعتبار أن الشرع هو مورد العبادة وضابطها ، فلا تخضع العبادة لاطراد العرف ، بل قد تكون مضادة لعوائد وأعراف ، كما أن العبادة لا تخضع لاقتضاء العقل واستحسانه ؛ فمن العبادات الشرعية ما تكون محيّرة للعقول .والله أعلم .

ومن قواعد هذا الموضوع : أن الحبّ الخلي عن ذل ، والذل الخلي عن حبّ لا يكون عبادة ؛ فالعبادة ما يجمع كمال الأمرين : كمال الحبّ وغايته ، وكمال الذلّ وغايته .
يقول ابن تيمية : "من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحبّ شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحبّ الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله ـ تعالى ـ ، بل يجب أن يكون الله أحبّ إلى
العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله "(العبودية ، ص 44 ، وانظر مجموع الفتاوى ، 19/10 ، 56).
ويقول ابن القيّم : "والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً"(مدارج السالكين ، 74/1 .) .
ومن القواعد أيضاً : كل من استكبر عن عبادة الله ـ تعالى ـ ، فلا بد أن يعبد غيره .
يقرر ابن تيمية ذلك بقوله : "الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله ، كان أعظم إشراكاً بالله" .
"فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه من إرادته ، بل استكبر عن ذلك ، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله ، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب : إما المال ، وإما الجاه ، وإما الصور ، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله"(العبودية ، ص 112 1114) .
ويقول في موضع آخر : (وهكذا أهل البدع لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة ، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة".
وقد قال ـ تعالى : [فَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ] [المائدة : 14] ، فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره ، فوقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وقال تعالى : [اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ] [الأعراف : 3] فأمر باتباع ما أنزل ، ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر .
وكذلك من لم يفعل المأمور ، فعل بعض المحظور ، ومن فعل المحظور ، لم يفعل جميع المأمور ، فلا يمكن لإنسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر ، ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر"(مجموع الفتاوى (الإيمان) 173/7 ، 174) .
ويقول ابن القيم ـ رحمه الله : "كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده ، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولا بد ، حتى في الأعمال ، فمن رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن
العمل لمن ضرّه ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك ، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم ، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بدّ ، وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي ، ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان ووسخ الأفكار"(مدارج السالكين ، 165/1 ، وانظر الفوائد ، ص 27).
ويؤكد العلاّمة عبد الرحمن السعدي هذه القاعدة قائلاً : "لما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكن الانتفاع به ولم ينتفع ، ابتلي بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عبادة الرحمن ، ابتلي بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان ، ومن ترك الذلّ لربه ، ابتلي بالذل للعبيد ، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل"(تفسير السعدي ، 18/1) .

ومن أجل مسائل هذا الموضوع : العبودية الباطنة والقيام بعبودية القلب ؛ فإن أعمال القلب أفرض على العبد من أعمال الجوارح ، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم ، فهي واجبة في كل وقت(انظر بدائع الفوائد لابن القيم ، 230/3) .
لقد تحدث علماء السلف ـ رحمهم الله ـ عن عبودية القلب ، فكان حديثاً عن علم وبصيرة وذوق وتحقيق .
ومن ذلك ما سطّره يراع شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول : " إذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً ، متيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسْر المحض ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب .
وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب .. فمن استُعبد قلبه فصار عبداً لغير الله ، فهذا يضره ذلك ، ولو كان في الظاهر ملك الناس .
فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس ، قال النبي : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس) أخرجه الشيخان .
وهذا لعمر الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة ، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة ، أو صبي ؛ فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب" (العبودية ، ص 96 ، 97) .
ويقرر ابن القيم هذه العبودية بقوله : "الإنابة هي عكوف القلب على الله ـ عز وجل ـ ، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له
والمتابعة لرسوله ، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة ، كما قال إمام الحنفاء لقومه : [مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ][الأنبياء : 52] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل ، وكان حظه العكوف على الربّ الجليل . والتماثيل جمع تمثال ، وهي الصورالممثلة ، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه ، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهمهم وإراداتهم على تماثيلهم ، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها ، ولهذا سماه النبي -صلى الله عليه وسلم- عبداً لها ، ودعا عليه بالتعس والنكس ، فقال : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم . تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش)رواه البخاري "(الفوائد ، ص 186) .
وبسط ابن القيم الحديث عن أرباب عبودية القلب وأحوالهم فكان مما قال : " وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرَت المحبة في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحبّ ، قد أنساهم حبّه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه ، فدنفوا بحبه عن حبّ من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه ، والتوكل عليه والإنابة إليه ، والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره ، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه ، واجتمع همّه عليه متذكراً صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، مشاهداً له في أسمائه وصفاته ، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته .
فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة ، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، وقيل لبعض العارفين : أيسجد القلب بين يدي ربه ؟ قال : إي والله ، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة "(طريق الهجرتين ، ص 206 ، 207) .

ويشير ابن رجب إلى عبودية القلب قائلاً : (إن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله وصدقه فيها ، وإخلاصه بها يقتضي أن يرسخ فيه تألّه الله وحده ، إجلالاً ، وهيبة ، ومخافة ، ومحبة ، ورجاء ، وتعظيماً ، وتوكلاً ، ويمتلئ بذلك ، وينتفي
عنه تأله ما سواه من المخلوقين ، ومتى كان كذلك ، لم يبق فيه محبة ، ولا إرادة ، ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبه ويطلبه ، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإراداتها ، ووساوس الشيطان ، فمن أحبّ شيئاً وأطاعة ، وأحبّ عليه وأبغض عليه فهو إلهه ، فمن كان لا يحب ولا يبغض إلا لله ، ولا يوالي ولا يعادي إلا له ، فالله إلهه حقاً ، ومن أحبّ لهواه ، وأبغض لهواه ، ووالى عليه ، وعادى عليه ، فإلهه هواه "(جامع العلوم والحكم ، 524/1) .
وفي مثال عملي يسطّره الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ حيث باع حماراً له ، فقيل له : لو أمسكته ! فقال : لقد كان لنا موافقاً ، ولكنه أذهب بشعبة من قلبي ، فكرهت أن أشغل قلبي بشيء "(أخرجه ابن المبارك في الزهد ، ص 195) .
قال شيخ الاسلام ابن تيمية : "العبد مجبول على أن يقصد شيئاً ويريده ، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده ؛ وهذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان " (مجموع الفتاوى ، 34/1 ، 35).
أركان العبادة ... 1ـ الحب : { والذين آمنوا أشد حبا لله }
ومن السنة قوله ـ صلى الله عليه وسلم – [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين] رواه الشيخان.
2ـ التعظيم : قوله تعالى { ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون } وقوله { فلا تخشوهم واخشون }.
3ـ الخوف والرجاء : قال تعالى { أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه } { إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا }
شروط العبادة ... الشرط الأول : هو الإخلاص لله وحده
وآية الكهف جمعت الشرطين ... كما قال تعالى{ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } , { قل الله أعبد مخلصا له ديني }...
{ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا } ... وقد حذر الله تعالى أن يقصد غيره بالعبادة فقال { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }..
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث القدسي : [أنا أغنى الشركاء عن الشرك..من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه].
والدليل على الإخلاص من السنة حديث عمر رضي الله عنه: [إنما الأعمال بالنيات ...] الحديث
الشرط الثاني : أن تكون صوابا على ما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه وهي المتابعة...
والدليل على ذلك قوله تعالى { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و الذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى..} الآية
يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع؛ فإن الإسلام مبني على أصلين : أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له . والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً } الآية [الجاثية] . وقال تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ } [الشورى : 21] ، فليس لأحد أن يعبد الله بما لم يشرعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من واجب ومستحب، لا نعبده بالأمور

المبتدعة؛ كما ثبت في السنن من حديث العرباض بن سارية : [وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة] قال الترمذي : حديث حسن صحيح .
وفي مسلم أنه كان يقول في خطبته : [خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة] . وليس لأحد أن يعبد إلا الله، فلا يصلي إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يحج إلا بيت الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يخاف إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله " .

يقول ابن تَيْمِيَّة : ((النّاس في عبادته واستعانته على أربعة أقسام : ـ
فالمؤمنون المتّقون هم له وبه ، يعبدونه ويستعينونه .
وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر ، فتجد عند أحدهم تحرّيًا للطّاعة والورع ، ولزوم السنّة ، لكن ليس لهم توكّل واستعانة وصبر ، بل فيهم عجز وجزع وطائفة فيهم استعانة وتوكّل وصبر من غير استقامة على الأمر ولا متابعة للسنّة . فقد يمكن أحدهم ، ويكون له نوع من الحال باطنًا وظاهرًا ، ويعطى من المكاشفات والتأثيرات ما لم يعطه الصنف الأوّل ، ولكن لا عاقبة له ؛ فإنّه ليس من المتّقين ، والعاقبة للتّقوى ؛ فالأوّلون لهم دين ضعيف ولكنّه مستمرّ باق إن لم يفسده صاحبه بالجزع والعجز ، وهؤلاء لأحدهم حال وقوّة ، ولكن لا يبقى له إلاّ ما وافق فيه الأمر ، واتّبع فيه السنّة .
وشرّ الأقسام من لا يعبده ولا يستعينه ؛ فهو لا يشهد أنّ عمله لله ، ولا أنّه بالله)) .
وقال ابن تيمية :" : وتوحيد الله وإخلاص الدين له عبادته واستعانته في القرآن كثير جداً، بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره . إلى أنه قال : وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .
إلى أن قال ـ رحمه الله ـ : فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له . فالعبادة متعلقة بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين، لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا مَلَك ولا نبي ولا غيره بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له نداً وهو خلقك . والشرك أن تجعل لغيره شركاً؛ أي : نصيباً في عبادتك وتوكلك واستعانتك .
قال ـ رحمه الله ـ : فأما سؤال ما يسوغ من العلم فليس من هذا الباب لأن المخبِر لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب، والسائل محتاج إلى ذلك . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [هلا سألوا إذ لم يعلموا . فإن شفاء العي السؤال] ، ولكن من المسائل ما ينهى عنه؛ كما قال تعالى : { لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء } [المائدة : 101] ، وكنهيه عن أغلوطات المسائل ، ونحو ذلك .
وقال ـ رحمه الله ـ : وأما سؤاله لغيره أن يدعو له، فقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر : [لا تنسنا من دعائك] ، وقال : [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة].
وقد يقال : هذا هو طلب من الأمة الدعاءَ له لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم . كما قال الذي قال : أجعل صلاتي كلها عليك فقال : [إذاً يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك] فطلبه منهم الدعاء له لمصلحتهم كسائر أمره إياهم بما أمرهم به، وذلك لما في ذلك من المصلحة لهم؛ فإنه قد صح عنه أنه قال : [ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً كلما دعا دعوة قال الملك : ولك مثله].
وقال ـ رحمه الله ـ في كتاب " التوسل والوسيلة " : " وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً؛ بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه

والتوكل عليه؛ وسؤال الخلق في الأصل محرم لكنه أبيح للضرورة، وتركه توكلاً على الله أفضل، قال الله تعالى : { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } [الشرح] ؛ أي : ارغب إلى الله لا إلى غيره .
وقوله : [إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله] ، هو من أصح ما روي عنه .
وفي " المسند " لأحمد : أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه ويقول : إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً]
وقال - رحمه الله - : وأما سؤال المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به، بخلاف سؤال أهل العلم، فإن الله أمر بسؤال أهل العلم فقال تعالى : { فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] ، وقال تعالى : { فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ } [يونس : 94] ، وقال تعالى : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا } [الزخرف : 45] ، وهذا لأن العلم يجب بذله؛ فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة (47)، وهو يزكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ولهذا يشبّه بالمصباح .
وكذلك من له حق عند غيره من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية، ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية، وكذا الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه .
قال : وقد يكون السؤال منهياً عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه، وإن كان المسؤول مأمور بإجابة سؤاله ".

قوله تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم }: { الصراط } فيه قراءتان: بالسين: {السراط} ، وبالصاد { الصراط }؛ والمراد بـ{ الصراط المستقيم : أصله الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ،يستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة.
والهداية هي الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً قال الإمام الراغب في تفسيره : الهداية دلالة بلطف واما قوله تعالى : { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [الصافات : 23]فالمراد به التهكم بهم .
والهداية من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض
1-الهداية العامة وهي إعطاؤه العبد القوى التي بها يهتدي إلى مصالحه كقوله تعالى : { أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه : 50] ، وقوله تعالى : { الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى : 3] .
2-هداية الارشاد والدلالة وإياها عنى بقوله تعاى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } [السجدة : 24] . وبقوله : { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [الرعد : 7] ، وهذه الهداية تنسب تارة إلى الله عز وجل ، وتارة إلى النبي عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء : 9] .
3- هداية التوفيق لصالحي عباده كقوله عز وجل : { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } [الحج : 24] .وهذه الهداية هي المنفية عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (انك لا تهدي من احببت)فنفاها عنه واثبت له سابقتها وهي الهداية العلمية بالارشاد للخير .
4-هداية التمكين من مجاورته في دار الخلد ، وإياها عنى الله بقوله : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } [الأعراف : 43] .)
قال ابن كثير :" قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِالصَّادِ. وَقُرِئَ: "السِّرَاطَ" وَقُرِئَ بِالزَّايِ، قَالَ الْفَرَّاءَ: وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عُذْرَةَ وَبَلْقَيْنِ وَبَنِي كلب.

لما تقدم الثناء على المسؤول، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، نَاسَبَ أَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّؤَالِ؛ كَمَا قَالَ: "فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ، أَنْ يَمْدَحَ مسؤوله، ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ [وَحَاجَةُ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: {اهْدِنَا}] ، لِأَنَّهُ أَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَعُ لِلْإِجَابَةِ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ، وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [الْقَصَصِ: 24] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كَقَوْلِ ذِي النُّونِ عليه السلام: {لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الْأَنْبِيَاءِ: 87] وَقَدْ يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ[51]

وَالْهِدَايَةُ هَاهُنَا: الْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ[52].

---

[51] ـ قال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (183/1): وَمَا يُرْوَى أَنَّ الْخَلِيلَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي الْمَنْجَنِيقِ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : سَلْ قَالَ " حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي " لَيْسَ لَهُ إسْنَادٌ مَعْرُوفٌ وَهُوَ بَاطِلٌ بَلْ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. . . " وَأَمَّا سُؤَالُ الْخَلِيلِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَذَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَكَيْفَ يَقُولُ حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي ؟. !

وقال أيضاً (538/8):وَأَمَّا قَوْلُهُ : حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي فَكَلَامٌ بَاطِلٌ خِلَافَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ دُعَائِهِمْ لِلَّهِ وَمَسْأَلَتِهِمْ إيَّاهُ وَهُوَ خِلَافُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ سُؤَالِهِمْ لَهُ صَلَاحَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَقَوْلِهِمْ : {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[البقرة/201]. وَدُعَاءُ اللَّهِ وَسُؤَالُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ عِبَادَةٌ لِلَّهِ مَشْرُوعَةٌ . . . اهـ.

وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة وقال : هو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع . اهـ.

وقد أخذ هذا المعنى بعض الصوفية فقال : "سؤالك منه اتهام له. "

قال الألباني رحمه الله: "وهذه ضلالة كبرى ! فهل كان الأنبياء صلوات الله عليهم متهمين لربهم حين سألوه مختلف الأسئلة ؟ فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا . . . } [إبراهيم /37-38]. إلى آخر الآيات ، وكلها أدعية وأدعية الأنبياء في الكتاب والسنة لا تكاد تحصى ، والقائل المشار إليه قد غفل عن كون الدعاء الذي هو تضرع والتجاء إلى الله تعالى عبادة عظيمة بغض النظر عن ماهية الحاجة المسؤولة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الدعاء هو العبادة) ثم تلا قوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر/60].

وذلك لأن الدعاء يظهر عبودية العبد لربه وحاجته إليه ومسكنته بين يديه ، من رغب عن دعائه ، فكأنه رغب عن عبادته سبحانه وتعالى ، فلا جرم جاءت الأحاديث متضافرة في الأمر به والحض عليه حتى قال صلى الله عليه وسلم : [من لا يدع الله يغضب عليه].

أخرجه الحاكم (491/1) وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث حسن ، وقال صلى الله عليه وسلم " سلوا الله كل شيء حتى الشسع ، فإن الله عز وجل إن لم ييسره لم يتيسر " أخرجه ابن السني (رقم 349) بسند حسن ، وله شاهد من حديث أنس عن الترمذي (292/4) وغيره.

وبالجملة ، فهذا الكلام المعزو لإبراهيم عليه السلام لا يصدر من مسلم يعرف منزلة الدعاء في الإسلام فكيف يقوله من سمانا المسلمين ؟!" اهـ .سلسلة الأحاديث الضعيفة (29/1).

[52] ـ انكرت المعتزلة هداية التوفيق, لأن عندهم أن الله لا يقدر على هداية أحد وجعله مؤمناً, وإنما أثبتوا الهداية العامة هداية الدلالة والإرشاد. وقالوا إن معنى (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يحكم بالهداية أو الضلال, يعني من اهتدى حكم له بالهداية, ومن ضل حكم له بالضلال, أو سماه ضالاً, وأما أنه يجعل هذا ضالاً وهذا مهتدياً فلا, لأنهم أخرجوا أفعال العباد عن مشيئة الرب وعن قدرته, تعالى الله عن قول الظالمين والمفترين علواً كبيراً.

ـ وَقَدْ تَعَدَّى الْهِدَايَةُ بِنَفْسِهَا كَمَا هُنَا {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} فَتَضَمَّنُ مَعْنَى أَلْهِمْنَا، أَوْ وَفِّقْنَا، أَوِ ارْزُقْنَا، أَوِ اعْطِنَا؛ {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [الْبَلَدِ: 10] أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.
ـوَقَدْ تَعَدَّى بِإِلَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النَّحْلِ: 121] {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصَّافَّاتِ: 23] وَذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِرْشَادِ وَالدَّلَالَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشُّورَى: 52]
ـوَقَدْ تَعَدَّى بِاللَّامِ، كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الْأَعْرَافِ: 43] أَيْ وَفَّقَنَا لِهَذَا وَجَعَلَنَا لَهُ أَهْلًا . وَأَمَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ "الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.(فتكون كلمة المستقيم هنا صفة كاشفة غير مقيدة)
وَكَذَلِكَ ذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرِ بْنِ عَطِيَّةَ الخَطَفي:
أميرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ ... إِذَا اعْوَجَّ الموارِدُ مُسْتَقِيمِ
قَالَ: وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، قَالَ: ثُمَّ تَسْتَعِيرُ الْعَرَبُ الصِّرَاطَ فَتَسْتَعْمِلُهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وُصِفَ بِاسْتِقَامَةٍ أَوِ اعْوِجَاجٍ، فَتَصِفُ الْمُسْتَقِيمَ بِاسْتِقَامَتِهِ، وَالْمُعْوَجَّ بِاعْوِجَاجِهِ ".

فالهداية تحتاج الى معرفة للحق([53]) والى التوفيق للعمل بالحق والى الثبات على هذا الحق لان الانسان قد يستقيم ثم يترك الاستقامة كما ان الهداية ايضا ان يوفقك الله تعالى الى استغراق الوقت في الاعمال الفاضلة فان من حيل الشيطان ان يشغلك بالمفضول عن الفاضل.
قال ابن القيم في مدارج السالكين :" قوله اهدنا الصراط المستقيم فالهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثرا له راضيا به راغبا فيه
وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا وإلهامنا له وجعلنا مريدين لإتباعه ظاهرا وباطنا ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.
ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام
وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصرط الموصل إليها فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الركاب ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبوا حبوا ومنهم المخدوش المسلم ومنهم المكردس في النار فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا هل تجزون إلا ما كنتم تعملون.

---

[53] ـ ومعرفة الحق بالتعلم فانما العلم بالتعلم والتعلم يحتاج الى مثابرة وصبر ومخالفة للهوى الذي يدعو للراحة وكذلك بحاجة الى توضع ولزوم مجالس العلم .

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك وما ربك بظلام للعبيد.
فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.
(ثم قال) ولا تكون الطريق صراطا حتى تتضمن خمسة أمور الإستقامة والإيصال إلى المقصود والقرب وسعته للمارين عليه وتعينه طريقا للمقصود ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.
فوصفه بالإستقامة يتضمن قربه لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوج طال وبعد واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته (وهذا ليس بلازم فالصراط المضروب فوق جهنم ليس بواسع ومع ذلك يسمى صراطا) وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقا.
والصراط تارة يضاف إلى الله إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى { وأن هذا صراطي مستقيما } وقوله{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله } وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه ".
واختلفت عبارات المفسرين من السلف الخلف في تفسير { الصراط } وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو (المتابعة لله وللرسول) فروي أنه كتاب الله وقيل : إنه الإسلام قال ابن عباس : هو دين الله الذي لا اعوجاج فيه وقال ابن الحنفية : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره(وهذا من اختلاف التنوع) وقد فسر الصراط بالإسلام في حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تُعَوِّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ، لَا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ] (رواه أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان وأخرجه الترمذي والنسائي) .
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ، قَالَ: الْحَقُّ. وَهَذَا أَشْمَلُ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَقَدَّمَ.
قال ابن كثير :" وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ هَاشِمِ بْنِ الْقَاسِمِ؛ حَدَّثَنَا حَمْزَةُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قَالَ: هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحِبَاهُ مِنْ بَعْدِهِ، قَالَ عَاصِمٌ: فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلْحَسَنِ، فَقَالَ: صَدَقَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَنَصَحَ.
وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ".
فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ (4) هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا؟
فَالْجَوَابُ: أَنْ لَا وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهِدَايَةِ لَمَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الْهِدَايَةِ، وَرُسُوخِهِ فِيهَا، وَتَبَصُّرِهِ، وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِالْمَعُونَةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَلَا سِيَّمَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ

قَبْلُ} الْآيَةَ [النِّسَاءِ: 136] ، فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
وَقَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} وَقَدْ كَانَ الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ سِرًّا. فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} اسْتَمِرَّ بِنَا عَلَيْهِ ولا تعدل بنا إلى غيره ".
قال ابن القيم :" وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصرط الموصل إليها فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الركاب ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبوا حبوا ومنهم المخدوش المسلم ومنهم المكردس في النار فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا هل تجزون إلا ما كنتم تعملون
ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك وما ربك بظلام للعبيد فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر" .
فأنت بقولك: { اهدنا الصراط المستقيم } تسأل الله تعالى علماً نافعاً، وعملاً صالحاً؛ و{ المستقيم } أي الذي لا اعوجاج فيه..
وكما أن الإنسان مأمور بشهود القدر وتوحيد الربوبية عند المصائب، فهو مأمور بذلك عند ما ينعم الله عليه من فعل الطاعات، فيشهد قبل فعلها حاجته وفقره إلى إعانة الله له، وتحقق قوله : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5] .
ويدعو بالأدعية التي فيها طلب إعانة الله له علي فعل الطاعات، كقوله : [أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك] . وقوله : [يامقلب القلوب ثبت قلبي علي دينك، ويا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك] ، وقوله : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } [آل عمران : 8] ، وقوله : { رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } [الكهف : 10] ، ومثل قوله : [اللهم ألهمني رشدي واكفني شر نفسي] .
ورأس هذه الأدعية وأفضلها قوله : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } [الفاتحة : 6، 7] ، فهذا الدعاء أفضل الأدعية وأوجبها على الخلق، فإنه يجمع صلاح العبد في الدين والدنيا والآخرة، وكذلك الدعاء، بالتوبة فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة، وكذلك دعاء الاستخارة ، فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له، وكذلك الدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به إذا قام من الليل وهو في الصحيح : [اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه /من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم] .
وكذلك الدعاء الذي فيه : [اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا] ، وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما في حديث أبي بكر، وكذلك قوله : [اللهم أصلح لي قلبي ونيتي] ، ومثل قول الخليل وإسماعيل : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً } [البقرة : 128] .

وهذه أدعية كثيرة تتضمن افتقار العبد إلى الله في أن يعطيه الإيمان والعمل الصالح، فهذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب، فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء، شهد إنعام الله فيه، وكان في مقام الشكر والعبودية لله، وإن هذا حصل بفضله وإحسانه لا بحول العبد وقوته .
فشهود القدر في الطاعات من أنفع الأمور للعبد، وغيبته عن ذلك من أضر الأمور به، فإنه يكون قدريا منكرًا لنعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، وإن لم يكن قدري الاعتقاد كان قدري الحال، وذلك يورث العجب والكبر، ودعوى القوة والمنة بعمله، واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به، فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها- لا مع الاحتجاج بالقدر - عليها خيرًا من هذا الذي يشهد الطاعة منه، لا من إحسان الله إليه، ويكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان، أفضل من طاعة بدون هذا الإيمان .
/وأما من أذنب وشهد ألا ذنب له أصلا لكون الله هو الفاعل، وعند الطاعة يشهد أنه الفاعل، فهذا شر الخلق، وأما الذي يشهد نفسه فاعلا للأمرين، والذي يشهد ربه فاعلاً للأمرين، ولا يرى له ذنبًا؛ فهذا أسوأ عاقبة من القدري، والقدري أسوأ بداية منه.

قوله تعالى {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين}

قوله تعالى: { صراط الذين أنعمت عليهم } عطف بيان لقوله تعالى: { الصراط المستقيم }؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً }(النساء: 69)
قوله تعالى: { غير المغضوب عليهم }: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به..
قوله تعالى: { ولا الضالين }: هم النصارى قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به..
وفي قوله تعالى: { عليهم } قراءتان سبعيتان: إحداهما ضم الهاء؛ والثانية كسرها..
قال ابن كثير :" وَقَوْلُهُ: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} مُفَسِّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ بَيَانٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.([54])

---

[54] - فائدة: في الفرق بين البدل وعطف البيان:
1-البدل هو المقصود بالحكم ويأتي المتبوعُ قبلَهُ تمهيدًا لذكر البدل على حين عطف البيان متبوعه هو المقصود وإنما يأتي عطف البيان للتوضيح فهو كالصفة.
مثال للبدل نحو:{حرر القائد صلاح الدين بيت المقدس} فالبدل صلاح الدين هو المقصود بالحكم. مثال عطف البيان نحو:{جاء أبو خالد عمران} فأبو خالد هو المقصود بالحكم لكن {عمران} جاءت أوضح منه.
2-عطف البيان أوضح من متبوعه ولا يشترط ذلك في البدل. فاذا كان دونه في البيان او مساويا له فهو بدل واما اذا كان اوضح منه فهو عطف بيان.
فاذا قلت "جاء عبدالرحمن بن صخر ابو هريرة " فأبو هريرة أوضح من عبدالرحمن بن صخر فهذا عطف بيان وأما اذا قلت "جاء أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر فهذا بدل .
وهنا قول تعالى {صراط الذين انعمت عليهم } أوضح من قوله {الصراط المستقيم } لانه مفسَّرٌ مُبيَّن لا يلتبس .فتكون الاية عطف بيان.
3- لك في البدل أن تستغني عن التابع أو المتبوع فقولك: {جاء الشاعرُ خالدٌ} يبقى سليما إذا أسقطتَ البدلَ أو المبدلَ منه ولا يصح ذلك دائما في عطف البيان مثل: {يا أيها الرجل}. لا يقال: {يا الرجل} و{يا زيد الفاضل} لا يقال: {يا الفاضل} ونحو:{جارك ماتت زينب أمه} لا يقال: {جارك ماتت زينب} ولذا يكون التابع في هذه الجمل وفي أمثالها عطف بيان لعدم صحة حلوله مكان المبدل منه. وحين تبقى الجملة سليمة بإسقاط التابع أو المتبوع صحّ في التابع أن يكون بدلا أو عطف بيان لكن الأصح إعرابه عطف بيان إذا كان أوضح أو أشهر من المتبوع.

وَ {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} (1) هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، حَيْثُ قَالَ: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} [النِّسَاءِ: 69، 70] .
وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِكَ وَعِبَادَتِكَ، مِنْ مَلَائِكَتِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ؛ وَذَلِكَ نَظِيرُ مَا قَالَ رَبُّنَا تَعَالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} الْآيَةَ [النِّسَاءِ: 69] .
وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} قَالَ: هُمُ النَّبِيُّونَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ وَكِيع: هُمُ الْمُسْلِمُونَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ. وَالتَّفْسِيرُ الْمُتَقَدِّمُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَعَمُّ، وَأَشْمَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَقَوْلُهُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: "غَيْرِ" بِالْجَرِّ عَلَى النَّعْتِ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَرُوِيَتْ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَذُو الْحَالِ الضَّمِيرُ فِي {عَلَيْهِمْ} وَالْعَامِلُ: {أَنْعَمْتَ} وَالْمَعْنَى] اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُمْ وَنَعْتُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، [وَهُمُ] الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ، فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَهُمُ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ، وأكد الكلام بلا لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ، وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.
وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النُّحَاةِ أَنَّ {غَيْرَ} هَاهُنَا اسْتِثْنَائِيَّةٌ، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا مُنْقَطِعًا لِاسْتِثْنَائِهِمْ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ، وَمَا أَوْرَدْنَاهُ أَوْلَى ، لِقَوْلِ الشَّاعِرِ كأنَّك مِنْ جمال بَنِي أقَيش ... يُقَعْقَعُ عِنْدَ رِجْلَيْه بشَنّ
أَيْ: كَأَنَّكَ جَمَلٌ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ، فَحَذَفَ الْمَوْصُوفَ وَاكْتَفَى بِالصِّفَةِ ، وَهَكَذَا، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}
أَيْ: غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ.
اكْتَفَى بِالْمُضَافِ إِلَيْهِ عَنْ ذِكْرِ الْمُضَافِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ (لَا) فِي قَوْلِهِ: {وَلَا الضَّالِّينَ} زَائِدَةٌ، وَأَنْ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ عِنْدَهُ: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَاسْتَشْهَدَ بِبَيْتِ الْعَجَّاجِ: فِي بِئْرٍ لَا حُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرَ أَيْ فِي بِئْرِ حُورٍ. وَالصَّحِيحُ مَا قَدَّمْنَاهُ. وَلِهَذَا رَوَى أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: " غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ". وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ، [وَكَذَا حُكِيَ عَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَرَأَ كَذَلِكَ] وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّفْسِيرِ، فَيَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ إِنَّمَا جِيءَ بِهَا لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، [لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}] ، وَلِلْفَرْقِ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ، لِتُجْتَنَبَ كُلٌّ مِنْهُمَا؛ فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ، وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ، وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ اسْتَحَقَّ الْغَضَبَ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ. وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا قَاصِدِينَ شَيْئًا لَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ الْحَقِّ، ضَلُّوا، وَكُلٌّ مِنَ

4-إنَّ عطفَ البيانِ لا يكون تابعًا لجملة بخلاف البدل كما في قوله تعالى: {قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً} فجملة اتبعوا الثانية بدل من جملة اتبعوا الأولى و{أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ}.
-5البدل يخالف متبوعه في التعريف والتنكير: كقوله تعالى: {إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللَّهِ} و{بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ}. وعطف البيان لا يخالف متبوعه بذلك.

الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الْغَضَبُ [كَمَا قَالَ فِيهِمْ: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}] [الْمَائِدَةِ: 60] وَأَخَصُّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ [كَمَا قَالَ: {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}] [الْمَائِدَةِ: 77] ، وَبِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ. [وَذَلِكَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ] .

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: سَمِعْتُ سِماك بْنَ حَرْب، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبَّاد بْنَ حُبَيش، يُحَدِّثُ عَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صُفُّوا لَهُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَاءَ الْوَافِدُ وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ، وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ، فَمُنّ عَلَيَّ مَنّ اللَّهُ عَلَيْكَ، قَالَ: "مَنْ وَافِدُكِ؟ " قَالَتْ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، قَالَ: "الَّذِي فَرَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ! " قَالَتْ: فمنّ عَلَيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ، وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ ، تَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ، قَالَ: سَلِيهِ حُمْلانا، فَسَأَلَتْهُ، فَأَمَرَ لَهَا، قَالَ: فَأَتَتْنِي فَقَالَتْ: لَقَدْ فَعَلَ فَعْلَةً مَا كَانَ أَبُوكِ يَفْعَلُهَا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، وَأَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصِبْيَانٌ أَوْ صَبِيٌّ، وَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكِ كسرى ولا قيصر، فقال: "يَا عَدِيُّ، مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ؟ ". قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ، وَقَالَ: "الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى" . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ. قُلْتُ: وَقَدْ رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ مُرِّيِّ بْنِ قَطَرِيٍّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} قَالَ: "هُمُ الْيَهُودُ" {وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: "النَّصَارَى هُمُ الضَّالُّونَ". وَهَكَذَا رَوَاهُ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ بِهِ . وَقَدْ رُوِيَ حَدِيثُ عَدِيٍّ هَذَا مِنْ طُرُقٍ، وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ بُدَيْل العُقَيْلي، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيق، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِوَادِي القُرَى، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْقَيْنِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: " الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ -وَأَشَارَ إِلَى الْيَهُودِ-وَالضَّالُّونَ هُمُ النَّصَارَى" . وَقَدْ رَوَاهُ الجُرَيري وَعُرْوَةُ، وَخَالِدٌ الحَذَّاء، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيق، فَأَرْسَلُوهُ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ عُرْوَةَ تَسْمِيَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْدُويه، مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمان، عَنْ بُدَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ قَالَ: "الْيَهُودُ"، [قَالَ] قُلْتُ: الضَّالِّينَ، قَالَ: "النَّصَارَى" . وَقَالَ السُّدِّي، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} هُمُ الْيَهُودُ، {وَلَا الضَّالِّينَ} هُمُ النَّصَارَى.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَابْنُ جُرَيْج، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} اليهود، {ولا الضالين} هُمُ النَّصَارَى.

وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَلَا أَعْلَمُ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذَا اخْتِلَافًا.

وَشَاهِدُ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ مِنْ أَنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ، الْحَدِيثُ الْمُتَقَدِّمُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [الْبَقَرَةِ: 90] ، وَقَالَ فِي الْمَائِدَةِ {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [الْمَائِدَةِ: 60] ، وَقَالَ تَعَالَى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الْمَائِدَةِ: 78، 79] .

وَفِي السِّيرَةِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ؛ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الشَّامِ يَطْلُبُونَ الدِّينَ الْحَنِيفَ، قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. فَقَالَ: أَنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ أَفِرُّ. وَقَالَتْ لَهُ النَّصَارَى: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ فَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُهُ. فَاسْتَمَرَّ عَلَى فِطْرَتِهِ، وَجَانَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَدِينَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى، وَأَمَّا أَصْحَابُهُ فَتَنَصَّرُوا وَدَخَلُوا فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهُ أَقْرَبَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ إِذْ ذَاكَ، وَكَانَ مِنْهُمْ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ لَمَّا بَعَثَهُ آمَنَ بِمَا وَجَدَ مِنَ الْوَحْيِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(مَسْأَلَةٌ) : وَالصَّحِيحُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ الْإِخْلَالُ بِتَحْرِيرِ مَا بَيْنَ الضَّادِ وَالظَّاءِ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الضَّادَ مَخْرَجُهَا مِنْ أَوَّلِ حَافَّةِ اللِّسَانِ وَمَا يَلِيهَا مِنَ الْأَضْرَاسِ، وَمَخْرَجُ الظَّاءِ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ وَأَطْرَافِ الثَّنَايَا الْعُلْيَا، وَلِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْحَرْفَيْنِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَجْهُورَةِ وَمِنَ الْحُرُوفِ الرِّخْوَةِ وَمِنَ الْحُرُوفِ الْمُطْبَقَةِ، فَلِهَذَا كُلِّهِ اغْتُفِرَ اسْتِعْمَالُ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ لِمَنْ لَا يُمَيِّزُ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَأَمَّا حَدِيثُ: "أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ" فَلَا أَصْلَ لَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَصْلٌ

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السورة الكريمة وهي سبع آيات، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَثْبِيتَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفْضِي بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ؛ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} وَحَذْفُ الْفَاعِلِ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ (وهذا من مُلَح التفسير)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} الآية [المجادلة: 14].

كَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بقدره، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الْكَهْفِ: 17] . وَقَالَ: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الْأَعْرَافِ: 186] . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الْفِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ، مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتْرُكُونَ ما يكون فيه صريحا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ" ([55]).

---

[55] ـ فما من طائفة من اهل البدع الا ويستدلون على بدعتهم لغرض تسويقها بنصوص من الوحيين يرون انها توافق هواهم ويغمضون اعينهم عن نصوص اخرى يرون انها تخالف ما هم عليه فترى القدرية الجبرية مثلا ينظرون الى النصوص التي فيها ان الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء فيقولون ان الانسان ليس له حيلة وانه كالريشة في مهب الريح وطائفة اخرى نظروا الى النصوص التي تثبت للعبد قدرة على الهدى والضلال فيأخذون بها ويتركون ما سواها فيقولون ان الهداية والاضلال ليس من خلق الله تعالى بل هي من خلق العبد وان شاء هداية الخلق ولكنهم ضلوا .فكل اخذ بجزء من النصوص وتر الباقي وهذه طريقة اهل البدع التي سببا للانحراف في أي باب سلكت .

ومثل ذلك في التعامل مع اهل البدع فاذا اخذت النصوص التي فيها فقط المفاصلة والهجر ستخرج بنتيجة غير صحيحة واذا نظرت الى نصوص اخرى تجد ان التعامل الشرعي غير هذا وتركت الاولى ستخرج بنتيجة تذهب بعقيدة الولاء والبراء وتدعو للاندماج مع اليهودي والنصراني وسائر الطوائف .

وهذا له تعلق بالعلم لانه لم يسمع الا بنص او نصين في المسألة وظن ان هذا كل شي وعلامة ذلك انه هذا الجاهل يستخدم عبارات قوية في مسائل يسوغ فيها الخلاف كقولهم وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه .

يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [آل عِمْرَانَ: 7] ، فَلَيْسَ -بِحَمْدِ اللَّهِ-لِمُبْتَدِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ (56)؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصِلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ".

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : : وقد صح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : [اليهود مغضوب عليهم . والنصارى ضالون] ، وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع مثل قوله تعالى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ } [المائدة : 60] ، وقوله : { فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ } [البقرة : 90] ، وقوله : { وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ } [آل عمران : 112] ، وذكر آيات في هذا المعنى تدل على أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون؛ مصداقاً لقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : ولما أمرنا الله سبحانه أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين .

كان ذلك مما يبين أن العبد يخاف عليه من الانحراف إلى هذين الطريقين، وقد وقع ذلك كما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال : [لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه] . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : (فمن) ؟ . وهو حديث صحيح (20)

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم ففيه شبه من اليهود . ومن انحرف من العُبَّاد ففيه شبه من النصارى (وهذا تشابه نسبي وليس تشابها من كل وجه)؛ كما يُرى في أصول منحرفة أهل العلم من تحريف الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب، والبخل بالعلم، والكبر، وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم، وغير ذلك .

وكما يُرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين والابتداع في العبادات، ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله].

ولهذا يشرع في التشهد وفي سائر الخطب المشروعة كخطب الجمع والأعياد وخطب الحاجات عند النكاح وغيره أن نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحقق عبوديته لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح من دعوى الألوهية، حتى قال رجل : ما شاء الله وشِئت، فقال : [أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده].

وقال : [لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني].

وكذلك له تعلق بالقصد لان من عنده هوى سيميل الى الشيء الذ يوافق هواه.
وكذلك العقل وطريقة تفكير الانسان فتكون نظرته قاصرة .

56 ـ قيده بكونه حجة صحيحة لان اهل الاهواء قد يحتجون بحجج غير صحيحة على باطلهم كما أخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة.
وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم في بيوتنا نزل قال صدقت ولكن القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون ولكن خاصمهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصا فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة.
لكن فيه اشكال مع من لا يؤمن بالسنة اصلا بل ينكرها .
وبعضهم يعطل نصوص الكتاب والسنة جميعا بدعوى مخالفتها للعقل فيجعل هواه حاكما على الوحيين ويجعل الوحي تابعا لا متبوعا والله المستعان .

وقال : [اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ! اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى .
وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم، قال تعالى في خطابه : { وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } [المائدة : 12] ، والتعزير : النصر والتوقير والتأييد . وقال تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } [الفتح : 8، 9] ، فهذا في حق الرسول، ثم قال في حق الله تعالى : { وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } ، وقال تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف] ، وذكر طاعة الرسول في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن ثم ذكر ـ رحمه الله ـ جملة منها، ثم قال:
فقد بين الله في كتابه حقوق الرسول : من الطاعة له، ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره، وتحكيمه، والرضى بحكمه والتسليم له واتباعه والصلاة والتسليم عليه، وتقديمه على النفس والأهل والمال، ورد ما يُتنازع فيه إليه، وغير ذلك من الحقوق .
وأخبر أن طاعته طاعتُه فقال : { مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ } [النساء : 8] ، ومبايعته فقال : { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } [الفتح : 10] ، وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال : { أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة : 24] ، وفي الطاعة والمعصية فقال : { وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ } [النساء : 13] { وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [النساء : 14] ، وفي الأذى فقال : { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الأحزاب : 57] ؛ فهذا ونحوه هو الذي يستحقه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بأبي هو وأمي ! فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له؛ كما قال : {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً } [النساء : 36] ".
وقال ايضا " وقال تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ } [الشورى] ، فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بِفِعْلِ ما أمر، وترك ما حظر، وتصديقه فيما أخبر، ولا طريق إلى الله إلا ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين فيما أخبر، ولا طريق إلى الله إلا ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين، وحزب الله المفلحين، وجند الله الغالبين، وكل ما خالف ذلك فهو من طريق أهل الغي والضلال .
وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا، فقال تعالى : { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [النجم] ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول في صلاتنا : { اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ } [الفاتحة] ، وقد روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : (اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون) ، قال الترمذي : حديث صحيح وقال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى . وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا زلة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .
فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] ، ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ } [المائدة : 77] .

فالأول - يعني : الذي أشبه اليهود - من الغاوين .
والثاني - يعني : الذي أشبه النصارى - من الضالين، فإن الغي اتباع الهوى، والضلال عدم الهدى؛ قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الأعراف] . انتهى كلام الشيخ - رحمه الله - .
وبه يتبين أن ترك الهدى غيٌّ، والعمل بغير هدى ضلال، وأن العمل على هدى هو الصلاح والصراط المستقيم، وأكثر الناس من الصنفين الأولين، والصنف الثالث هم أهل النجاة، وقد ذكر الله الأصناف الثلاثة في آخر سورة الفاتحة التي نقرؤها في كل ركعة من صلاتنا : { اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ } [الفاتحة] ، فيا له من دعاء عظيم لو تأملناه نسأل الله الهداية والتوفيق ".
وقال ايضا :" وإنما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، وهو الصراط المستقيم وهو طريقة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خير القرون وأفضل الأمة، وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين، قال تعالى : { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ } [التوبة : 100] ، فرضي عن السابقين الأولين رضاً مطلقاً، ورضي عن التابعين لهم بإحسان .
وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الأحاديث الصحيحة : [خير القرون القرن الذي بعثت فيهم . ثم الذين يلونهم . ثم الذين يلونهم] ، وكان عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - يقول : "من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبر هذه الأمة قلوباً . وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وإقامة دينه . فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ".
وقال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - : "يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً ".
وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : " خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطاً وخط حوله خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : [هذا سبيل الله وهذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه] ، ثم قرأ : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } [الأنعام : 153] وقد أمرنا سبحانه أن نقول في صلاتنا : {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ } [الفاتحة] . وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : [اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون] ، وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم ".

من فوائد الايات

1- إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في حصول الهداية لانها فضل محض من الله..
2-ان الناس ثلاثة قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون.
3-أسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم . وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق . وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة . أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً . كلهم مغضوب عليهم..
4- ومنها: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه . بخلاف المخالف عن جهل..
5- شدة الحاجة الى سؤال الهداية لانه لا نجاة للعبد الا بها ومن فاتته فهو اما من المغضوب عليهم واما من الضالين

وحاجة الانسان لهذه الهداية اشد من حاجته لطعامه وشرابه لانه بفقدهما يموت -والموت لا بد منه - فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت فكان هذا الموت رحمة في حقه .واما من فاتته الهداية فمات كان من اعظم الخاسرين.

ولان الذنوب من لوازم النفس فهو محتاج الى الهداية في كل حين ولو هدى فانه محتاج الى الثبات على هذا الهدى حتى الوفاة ولان المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم

6-قال ابن تيمية (ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة؛ لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن، والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما فى النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها فى الدنيا والآخرة، فيعلم أن الله - بفضله ورحمته - جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر .

فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل - فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال تعالى : { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ } [فصلت : 43] ، وقال تعالى : { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } [البقرة : 118] .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (لتسلكن سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه) . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : (فمن ؟) .

وقال : (لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها، شِبْراً بشبر، وذراعاً بذراع) . قيل : يا رسول الله، فارس والروم ؟ قال : (فمن ؟) وكلا الحديثين فى الصحيحين .

7-قال الأصفهاني :المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كل من حاد عن جادة الإسلام من أي : فرقة ونحلة ، وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراده وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبي حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً في أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .)

9- قال ابن القيم (فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة لأن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها ألبتة فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح { قد أفلح من زكاها } والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه والجاهل بالحق هو الضال والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل فكل منهما ضال مغضوب عليه ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به

ومن ههنا كان اليهود أحق به وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى في حقهم { بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب} وقال تعالى { قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة من عندالله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدالطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل}

والجاهل بالحق أحق باسم الضلال ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى { قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق

ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل فالأولى في سياق الخطاب مع اليهود والثانية في سياقه مع النصارى وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال قال رسول الله (اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون)

10- وأضاف النعمة إليه وحذف فاعل الغضب لأن النعمة هي الخير والفضل والغضب من باب الإنتقام والعدل والرحمة تغلب الغضب فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه وحذف الفاعل في مقابلتهما كقول مؤمني الجن { وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا}
11-وذكر الصراط المستقيم مفردا معرفا تعريفين تعريفا باللام وتعريفا بالإضافة وذلك يفيد تعينه واختصاصه وأنه صراط واحد وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله }فوحد لفظ الصراط و سبيله وجمع السبل المخالفة له وقال ابن مسعود خط لنا رسول الله خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره وقال هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق
ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد فإنه متصل بالله موصل إلى الله .

قول (آمين)
قال ابن كثير :" يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: آمِينَ [مِثْلَ: بس] ، وَيُقَالُ: أَمِينَ. بِالْقَصْرِ أَيْضًا [مِثْلَ: يَمِينٍ] ، وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} فَقَالَ: "آمِينَ"، مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ، وَلِأَبِي دَاوُدَ: رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمْ.
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَلَا {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} قَالَ: "آمِينَ" حَتَّى يُسْمِعَ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَزَادَ: يَرْتَجُّ بِهَا الْمَسْجِدُ (وضعفها الالباني) ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ.
وَعَنْ بِلَالٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تسبقني بآمين. رواه أبو داود .
وَنَقَلَ أَبُو نَصْرٍ الْقُشَيْرِيُّ عَنِ الْحَسَنِ وَجَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَنَّهُمَا شَدَّدَا الْمِيمَ مِنْ آمِينَ مِثْلَ: {آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [الْمَائِدَةِ: 2] .(وهو بعيد جدا ولا ينبغي قوله في الصلاة)
قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ: وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ(يعني التأمين) لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الصَّلَاةِ، وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي، وَسَوَاءٌ كَانَ مُنْفَرِدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لِمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"([57])
وَلِمُسْلِمٍ: أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" .

---

[57] - قال النووي رحمه الله : "كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ(صيام عرفه وحديث التأمين ونحوهما) صَالِحٌ لِلتَّكْفِيرِ فَإِنْ وَجَدَ مَا يُكَفِّرُهُ مِنَ الصَّغَائِرِ كَفَّرَهُ , وَإِنْ لَمْ يُصَادِفْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً كُتِبَتْ بِهِ حَسَنَاتٌ وَرُفِعَتْ لَهُ بِهِ دَرَجَاتٌ , .. وَإِنْ صَادَفَ كَبِيرَةً أَوْ كَبَائِرَ وَلَمْ يُصَادِفْ صَغَائِرَ , رَجَوْنَا أَنْ تُخَفِّفَ مِنَ الْكَبَائِرِ ".(المجموع شرح المهذب ج6).

[قِيلَ: بِمَعْنَى مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ فِي الزَّمَانِ ، وَقِيلَ: فِي الْإِجَابَةِ، وَقِيلَ: فِي صِفَةِ الْإِخْلَاصِ] [58] .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى مَرْفُوعًا: "إِذَا قَالَ، يَعْنِي الْإِمَامَ: {وَلَا الضَّالِّينَ} ، فَقُولُوا: آمِينَ. يُجِبْكُمُ اللَّهُ" . وَقَالَ جُوَيبر، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مَعْنَى آمِينَ؟ قَالَ: "رَبِّ افْعَلْ" . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: مَعْنَى آمِينَ: كَذَلِكَ فَلْيَكُنْ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: مَعْنَاهُ: لَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا [59]

..قَالَ أَصْحَابُ مَالِكٍ: لَا يُؤَمِّنُ الْإِمَامُ وَيُؤَمِّنُ الْمَأْمُومُ، لِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ سُمَيّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "وَإِذَا قَالَ، يَعْنِي الْإِمَامَ: {وَلَا الضَّالِّينَ} ، فَقُولُوا: آمِينَ". الْحَدِيثَ. وَاسْتَأْنَسُوا -أَيْضًا-بِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى: "وَإِذَا قَرَأَ: {وَلَا الضَّالِّينَ} ، فَقُولُوا: "آمِينَ".

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: "إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا" وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا قَرَأَ {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ".

واختلف في موضعها في جهر الامام في القراءة هل يؤمن المأموم بعده او يقارن تأمينه تأمين الامام والجمهور على انه يقارنه.

يقول النووى فى " الأذكار " : ويجهر به الإمام والمنفرد فى الصلاة الجهرية ، والصحيح أن المأموم أيضا يجهر به ، سواء كان الجمع قليلا أو كثيرا ، ويستحب أن يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام لا قبله ولا بعده ـ للحديث المتقدم ـ وليس فى الصلاة موضع يستحب أن يقترن فيه قول المأموم بقول الإمام إلا فى قوله آمين . وأما باقى الأقوال فيتأخر قول المأموم .[60]

يقول القرطبى : قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها، لأنه دعاء وقد قال اللَّه تعالى " ادعوا ربكم تضرعا وخفية " ورد عليه بأن إخفاء الدعاء أفضل لما يدخله من الرياء . أما صلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر، وإظهار حق يُنْدَبُ العباد إلى إظهاره ، وقد ندب الإمام إلى إشهار

---

58 ـ وانما المقصود ان يوافق قوله قول الملائكة كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه . رواه مالك والبخاري واللفظ له ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .
وفي رواية للبخاري : إذا قال أحدكم آمين وقالت الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.
وفي رواية (كان يعلّمُنا يقولُ «لا تبادرُوا الإمامَ [بالرّكوعِ والسُّجود] : إذا كبَّر فكبّروا ، وإذا قال : " ولا الضالين " فقولُوا : (آمينَ) ؛ [فإنّه إذا وافقَ كلامُه كلامَ الملائكة غُفِرَ له] [ما تقدّم من ذنْبه] ، وإذا ركعَ فارْكعُوا ، وإذا قالَ : (سمعَ اللهُ لمن حمِدَه) فقولُوا : (اللهمّ ربَّنا ! و لكَ الحمْدُ) ، [ولا ترفعُوا قبلَه] ، [وإذا سجد فاسجدُوا]») .
أخرجه مسلم (20/2) ، وأبو عوانة (121/2) ، والبيهقي في «سننه» (92/2) ،وأحمد (440/2) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : ... فذكره.
أخرجه مسلم وحده من طريق عيسى بن يونس : حدثنا الأعمش . . . والسياق له ، والثلاثة الآخرون من طريق محمد بن عبيد : ثنا الأعمش به ، والزيادة الأولى لأحمد ، والثانية لأبي عوانة ، والخامسة للبيهقي .

59 ـ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : "التَّأْمِينُ قَائِمٌ مَقَامَ التَّلْخِيصِ بَعْدَ الْبَسْطِ , فَالدَّاعِي فَصَّلَ الْمَقَاصِدَ بِقَوْلِهِ : (اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) إِلَى آخِرِهِ , وَالْمُؤَمِّنُ أَتَى بِكَلِمَةٍ تَشْمَلُ الْجَمِيعَ ، فَإِنْ قَالَهَا الْإِمَامُ فَكَأَنَّهُ دَعَا مَرَّتَيْنِ : مُفَصِّلًا ثُمَّ مُجْمِلًا" انتهى من " فتح الباري " (307/2).
60 ـ فائدة : قال الشيخ عبدالعزيز الراجحي :" إذا كان الإمام يطيل الاستفتاح فإنه يشرع للمأموم أن يقرأ الفاتحة أثناء ذلك، ولا يعد ذلك مسابقة؛ لأن المسابقة تكون في الركوع والسجود لا في القراءة". وذلك في القراءة السرية.

قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ، فإذا كان الدعاء مما يُسنُّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه . وهذا بيّن .([61])

---

[61] ـ وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن الإمام يؤمن جهرا.
منها : قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا) ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : " وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : آمِينَ " رواه البخاري ومسلم .
قال ابن رشد المالكي في "بداية المجتهد" (119/1) : "وهو نص في تأمين الإمام" انتهى.
وقال ابن عبد البر المالكي" :وفي هذا الحديث أيضا : أن الإمام يقول : آمين ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أمن الإمام فأمنوا) . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (كان يقول : آمين إذا فرغ من قراءة فاتحة الكتاب) وهذا نص يرفع الإشكال ، ويقطع الخلاف ، وهو قول جمهور علماء المسلمين . وممن قال ذلك : مالك في رواية المدنيين عنه ، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل وداود الظاهري ، لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة ووائل بن حجر. " انتهى من "التمهيد" (7/11-15).
أما المأموم ، فقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يؤمّن سرًّا.
وذهب الإمامان الشافعي وأحمد وبعض المالكية إلى أنه يؤمّن جهرا ، وهذا القول هو الصحيح ، وعليه تدل الأحاديث الصحيحة ، والآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم.
روى أبو داود (799) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : " تَرَكَ النَّاسُ التَّأْمِينَ ! ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَالَ : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . رفع صوته فقال : آمِينَ " قال الدارقطني : إسناده حسن ، وقال البيهقي : حسن صحيح ، وصححه الألباني فقال : " معناه صحيح ، فإن له شاهدا من حديث وائل بن حجر بسند صحيح. "انتهى من " سلسلة الأحاديث الضعيفة " (2/368).
زاد ابن ماجة (843) في روايته للحديث : (حَتَّى يَسْمَعَهَا أَهْلُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، فَيَرْتَجَّ بِهَا الْمَسْجِدُ)وهذه الزيادة ضعيفة لا تصح ، انظر : "تلخيص الحبير" (238/1) ، "الأحاديث الضعيفة "(951) ، (952). وروى الترمذي من حديث سفيان الثوري بسنده عن وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ : " سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقَالَ : (آمِينَ) وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ" . قال النووي في المجموع (328/3) : إسناده حسن ، وصححه الألباني.
قال الترمذي : "حَدِيثُ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَبِهِ يَقُولُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، يَرَوْنَ أَنَّ الرَّجُلَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّأْمِينِ وَلَا يُخْفِيهَا ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَقُ."
ورواه شعبة بلفظ : (فَقَالَ : آمِينَ . وَخَفَضَ بِهَا صَوْتَهُ) ، قَالَ الترمذي : سَمِعْت مُحَمَّدًا (يعني : الإمام البخاري) يَقُولُ : حَدِيثُ سُفْيَانَ أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ فِي هَذَا ، وَأَخْطَأَ شُعْبَةُ فِي مواضع مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ...
قَالَ الترمذي : وَسَأَلْتُ أَبَا زُرْعَةَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ : حَدِيثُ سُفْيَانَ فِي هَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ" انتهى.
وروى الشافعي في "الأم" عن عطاء قال : كنت أسمع الأئمة ابن الزبير ومن بعده يقولون : آمين، ومن خلفهم : آمين ، حتى إن للمسجد لَلَجَّة [اللَّجَّة هي الصوت المرتفع.]
وهذا الأثر رواه البخاري في صحيحه معلقا ، وجزم بصحته عن عطاء ، فقال : "بَاب جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ . وَقَالَ عَطَاءٌ : آمِينَ دُعَاءٌ ، أَمَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَمَنْ وَرَاءَهُ حَتَّى إِنَّ لِلْمَسْجِدِ لَلَجَّةً" انتهى.
وقال البيهقي (59/2) وروينا عن ابن عمر رضى الله عنه " أنه كان يرفع بها صوته ، إماما كان أو مأموما. "
وهذا الأثر رواه البخاري عن ابن عمر معلقا ، بصيغة الجزم ، ولفظه : وَقَالَ نَافِعٌ : " كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَدَعُهُ ، وَيَحُضُّهُمْ ، وَسَمِعْتُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ خَيْرًا. "
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (307/2)": (وَيَحُضُّهُمْ) أي على قولها (آمين)(خَيْرًا) أَيْ فَضْلًا وَثَوَابًا.
ووجه الاستدلال بِأَثَرِ اِبْنِ عُمَرَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا خَتَمَ الْفَاتِحَةَ , وَذَلِكَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا" انتهى .
وروى البيهقي (59/2) ، وابن جبان في "الثقات" عن عَطَاء قَالَ: " أَدْرَكْتُ مِائَتَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ، إِذَا قَالَ الْإِمَامُ : وَلَا الضَّالِّينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِآمِينَ. "
وقال الإمام البخاري رحمه الله : بَاب جَهْرِ الْمَأْمُومِ بِالتَّأْمِينِ ، وروى فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إِذَا قَالَ الإِمَامُ : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) فَقُولُوا : آمِينَ)
قال الحافظ ابن حجر" : قَالَ الزَّيْنُ بْنُ الْمُنِيرِ : مُنَاسَبَةُ الْحَدِيثِ لِلتَّرْجَمَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ فِي الْحَدِيثِ الْأَمْرَ بِقَوْلِ آمِينَ ، وَالْقَوْلُ إِذَا وَقَعَ بِهِ الْخِطَابُ مُطْلَقًا ، حُمِلَ عَلَى الْجَهْرِ ، وَمَتَى أُرِيدَ بِهِ الْإِسْرَارُ أَوْ حَدِيثُ النَّفْسِ: قُيِّدَ بِذَلِكَ.

فيستحب أن يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام، لقوله صلى الله عليه وسلم :إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .رواه البخاري.

قال ابن قدامة في المغني :وإنما قصد به تعريفهم موضع تأمينهم وهو عقب قول الإمام ولا الضالين، لأنه موضع تأمين الإمام؛ ليكون تأمين الإمام والمأمومين في وقت واحد موافقا لتأمين الملائكة .اهـ.

وَقَالَ اِبْنُ رُشيد : تُؤْخَذُ الْمُنَاسَبَةُ مِنْهُ مِنْ جِهَاتٍ : مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ " إِذَا قَالَ الْإِمَامُ ، فَقُولُوا " فَقَابَلَ الْقَوْلَ بِالْقَوْلِ ، وَالْإِمَامُ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ جَهْرًا ، فَكَانَ الظَّاهِرُ الِاتِّفَاقَ فِي الصِّفَةِ. "... انتهى من " فتح الباري " (311/2).
وقال النووي في " الأذكار" (ص 51) : " ويجهر به (التأمين) الإمام والمنفرد في الصلاة الجهرية ، والصحيح أن المأموم أيضا يجهر به ، سواء كان الجمع قليلا أو كثيرا " انتهى.
وقال ابن القيم رحمه الله" : السنةُ المحكمةُ الصحيحةُ : الجهرُ بآمين في الصلاة ، لقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين (إذا أمن الأمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) ؛ ولولا جهره بالتأمين لما أمكن المأموم أن يؤمن معه ويوافقه في التأمين ، وأصرح من هذا حديث وائل بن حجر وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما...
وذكر الحديثين المتقدمين ، ثم قال: وسئل الشافعي عن الإمام هل يرفع صوته بآمين ؟ قال : نعم ، ويرفع بها من خلفه أصواتهم . فقيل له : وما الحجة ؟ فقال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أمن الإمام) ؛ فيه دلالة على أنه أمر الإمام أن يجهر بآمين ، لأن من خلفه لا يعرفون وقت تأمينه إلا بأن يسمع تأمينه. "انتهى من " إعلام الموقعين " (396/2-398).
وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله": وقال الكوفيون [الحنفية] وبعض المدنيين [بعض أصحاب الإمام مالك]: لا يجهر بها [يعني : الإمام].
وقال الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وأهل الحديث : يجهر بها...
ثم ذكر الأحاديث الواردة في الجهر بها ، ثم قال: وكان أحمد بن حنبل يغلظ على من كره الجهر بها ، قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما حسدنا اليهود على شيء ما حسدونا على آمين)" انتهى من " التمهيد " (15/7).
ولكن يجب التنبه إلى أن هذه السنة من سنن الصلاة لا يجوز أن تكون سببا للشقاق والنزاع بين المسلمين.
وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:
عن حكم الجهر بالتأمين؟ وهل ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التأمين سراً في الصلاة الجهرية ؟
فأجاب : "الجهر بالتأمين في الصلاة الجهرية سنة ؛ لأنه تبع للقراءة ، وقد وردت في ذلك أحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أنه كان يجهر بهذا حتى إن المسجد يرتج من أصوات المأمومين بالجهر) ؛ ولأن المأموم يؤمن على قراءة إمامه التي يجهر بها، فالدعاء مجهور به ، فناسب أن يكون التأمين مجهوراً به أيضاً، هذا من الناحية النظرية.
ولكن مع هذا فلا ينبغي أن تكون هذه المسألة مثاراً للجدل، والحقد بين المسلمين، فإن ذلك ليس من طريق السلف الصالح ، فالسلف الصالح يختلفون في أمور كهذه ، ولا يضلل بعضهم بعضاً من أجل هذا، فإذا أَمَّن الإنسان ورفع صوته بالتأمين في الصلاة الجهرية ، كان ذلك خيراً وأفضل" انتهى من " مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين " (140/13).
وقد سئل الشيخ ابن باز رحمه الله : هل يجوز ترك الجهر بالتأمين في الصلاة ، وعدم رفع اليدين؟
فأجاب": نعم، إذا كان بين أناس لا يرفعون ولا يجهرون بالتأمين ، فالأولى أن لا يفعل تأليفاً لقلوبهم ، حتى يدعوهم إلى الخير ، وحتى يعلمهم ويرشدهم ، وحتى يتمكن من الإصلاح بينهم ، فإنه متى خالفهم واستنكروا هذا ؛ لأنهم يرون أن هذا هو الدين، يرون أن عدم رفع اليدين فيما عدا تكبيرة الإحرام ، يرون أنه هو الدين وعاشوا عليه مع علمائهم، وهكذا عدم الجهر بالتأمين ، وهو خلاف مشهور بين أهل العلم، منه من قال : يجهر، ومنهم من قال: لا يجهر بالتأمين ، وقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم رفع صوته ، وفي بعضها أنه خفض صوته ، وإن كان الصواب أنه يستحب الجهر بالتأمين ، وهو شيء مستحب ، ويكون ترك أمراً مستحباً، فلا يفعل مؤمن مستحباً يفضي إلى انشقاق وخلاف وفتنة بل يترك المؤمن والداعي إلى الله عز وجل ، المستحبَّ ، إذا كان يترتب على تركه مصالح أعظم، من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك هدم الكعبة ، وبناءها على قواعد إبراهيم، قال : (لأن قريشاً حديثو عهد بكفر) ، ولهذا تركها على حالها، ولم يغير عليه الصلاة والسلام للمصلحة العامة " انتهى.

وعليه؛ فإن كان المأمومون يسمعون تأمين الإمام استحب لهم مقارنته في التأمين، أما من لم يسمعه فالتأمين عند الفراغ من الفاتحة لأنه محل تأمين الإمام.

ومقارنة الإمام في التأمين بعد الفاتحة مستثناة من كراهة مقارنة الإمام لأنها مأمور بها كما مر.

وقال الحافظ العراقي في طرح التثريب قال :وجزم أصحاب الشافعي باستحباب مقارنة الإمام فيه .اهـ.

أما سبق المأموم للإمام بالتأمين فلا يضر، ويحصل به الثواب إن شاء الله تعالى، قال المرداوي في الإنصاف :فأما سبقه له في الأقوال فلا يضر سوى بتكبيرة الإحرام وبالسلام، فإنه يشترط أن يأتي بها بعد إمامه على المذهب، فلو أتى بها معه لم يعتد بها على الصحيح من المذهب مطلقا .اهـ.

والله اعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.
تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الفاتحة

جمع واعداد
محمد مريس الحجاجي

المصـــــــــــادر

1-تفسير الطبري.
2-تفسير ابن كثير.
3 - تفسير ابن عطية.
4-تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .
5- مجموع الفتاوى لابن تيمية.
6-تفسير احكام القران لابن العربي المالكي.
7-تفسير الكشاف للزمخشري.
8- تفسير اضواء البيان للشنقيطي.
9- تفسير الرازي.
10-تفسير المجموع الثمين لابن عثيمين .

11-موسوعة التفسير بالمأثور لمجموعة مؤلفين.
12- فتح القدير للشوكاني.
13- لسان العرب لابن منظور.
14- مدارج السالكين لابن القيم .
15- البحر المحيط لابن حيان الاندلسي.
16- تفسير احكام القران لجصاص.
17- تفسير القرطبي .
18- شرح النووي على مسلم.
19- فتح الباري لابن حجر.
20-لسان العرب لابن منظور .
21- صفة الصلاة للالباني.
22- زاد المعاد لابن القيم
23- التعليق على المصباح المنير لخالد السبت .
24- بدائع الفوائد لابن القيم.
25-موسوعة التفسير بالمأثور.
26- التفسير بالمأثور للسيوطي.
27-التبيان للنووي.
28- مجموع فتاوى ابن عثيمين.
29- زاد المسير لابن الجوزي.
30-القول المفيد في شرح قاعدة التوحيد للسعيدان.
31- شرح الاسماء الحسنى لخالد السبت.